

جمال البنا

وجوه الائتلاف والاختلاف  
بين  
الرأسمالية والشيوعية والإسلام



## [١]

### بين يدي الموضوع

#### جناية الألفاظ:

من المهم أن نشير أولاً وقبل كل شيء إلى أن الألفاظ التي يدور عليها هذا البحث أخذت في أذهان الناس لكثرة الاستخدامات الصحفية والأساليب الدعائية.. معان ومفاهيم بعيدة عن الصحة والدقة العلمية.. فكلمة «الاشتراكية» لا يمكن أن نطلقها على النظام المطبق في الاتحاد السوفيتي، لأن واضع النظام قد رفضها.. وفي الوقت نفسه فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه «الشيوعية».. لأنها مرحلة لم يبلغها الاتحاد السوفيتي رغم أن بعض قادته تصوروا في السنوات الأخيرة أنهم على عتبتها.. بل أكثر من هذا أننا عند التمحيص نجد أن «الاتحاد السوفيتي» ليس اتحاداً، وليس سوفيتياً.. ليس اتحاداً لأنه لا يمكن لأي جمهورية من الجمهوريات - المزعوم استقلالها الذاتي - وأنها تكون في مجموعها «الاتحاد» أن تخالف قيد أنملة سياسة «الدولة الأم»، أو أن تشذ عن سياسة الحزب؛ لأنها لو أبدت دلالات ذلك، فضلاً عن ممارسته، لعرضت نفسها للزوال، ولمحيت من خريطة الاتحاد السوفيتي، ولنقل سكانها إلى مناطق أخرى - كما حدث بالفعل - فالاتحاد السوفيتي ليس اتحاداً، لأن الوحدات التي تكونه (أي الجمهوريات والولايات والمناطق) تخضع لمركزية حديدية تجعل تبعيتها للحكومات المركزية أكثر من تبعية أي محافظة أو مقاطعة في الدول الأخرى التي لا تدعي أنها «اتحاد»، وهو ليس «سوفيتياً» لأن السوفيتيات إنما تعني مجالس الجنود والعمال والفلاحين التي تنتخب حسب وحداتها في المصانع والقرى والفرق العسكرية مندوبيها، وقد كانت هذه السوفيتيات هي التي قامت بثورة مارس وأكتوبر سنة ١٩١٧م في الاتحاد السوفيتي، واستخدمها لينين كمخلب قط تضع بين يديه السلطة بعد أن خدعها بشعار «كل السلطات للسوفيتيات»،

وما أن هيمن عليها حتى بطش بها شر بطشه، وركز السلطة كلها في الحزب، وانتهى الأمر بأن أصبحت السلطة التشريعية في الاتحاد السوفيتي في يد مجلسين: مجلس السوفيت الأعلى الذي ينتخب على أساس دوائر انتخابية تضم كل منها ثلاثمائة ألف مواطن، ومجلس سوفيت القوميات الذي يمثل كل قومية بعدد من المندوبين.. كلمة السوفيت التي زج بها كوصف للمجلسين محض تزييف؛ لأنه ليس فيها من حقيقة مضمون الكلمة شيء، والنظام المطبق في الاتحاد السوفيتي هو نفسه المطبق في الولايات المتحدة، إذ يوجد فيها مجلسان: مجلس نواب ينتخب أعضاؤه على أساس الدوائر الجغرافية، ومجلس شيوخ ينتخب أعضائه على أساس الولايات.. فالإتحاد السوفيتي ليس سوفيتياً بأكثر مما يمكن أن تعد الولايات المتحدة الأمريكية سوفيتية.. وقل مثل ذلك على الجمهوريات التي تحمل لافتة «الديمقراطية الشعبية»، والتي ليست من الديمقراطية أو الشعبية في شيء؛ لأن الحزب الوحيد هو الحاكم الوحيد، وليست الديمقراطية والشعبية إلا شعاراً يتستر وراءه هذا الحزب الوحيد الحاكم.

### **الماركسية - اللينينية:**

ولحل مشكلة الألفاظ ومدلولاتها ما بين العرف والحقيقة، ما بين الجهل المشهور.. والصواب المهجور.. فإننا نقول إننا نعني بالشيوعية الواردة في موضوع هذا البحث الماركسية اللينينية، وسنوضح المقصود بها حتى يكون القارئ على بينة.

**فالماركسية** هي النظرية التي استخلصها كارل ماركس من الفلسفة الألمانية، والاقتصاديات البريطانية، والأفكار والتجارب الاشتراكية الفرنسية، ويطلق أنصارها عليها تجوزاً، ومن قبيل الدعاية «الاشتراكية العلمية»، كما يطلق عليها أعداؤها من قبيل التنفير «الشيوعية»، وليست هي بالاشتراكية العلمية أو الشيوعية.. والاسم الوحيد الذي ينطبق عليها، ويكون وصفاً

صَادِقًا لَهَا هُوَ مَا يُوَدِّي إِلَيْهِ التَّوْجِيهِ الْقِرَآئِي «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ»، وَمِنْ هُنَا آثَرْنَا تَعْبِيرَ الْمَارِكْسِيَّةِ.

والماركسية هي أساس معظم الدعوات الاشتراكية الحديثة والمعاصرة، وإن لم ينف هذا اختلاف بعض هذه الدعوات عن الماركسية، ولكي يغلب أن تكون نقط الاتفاق أكثر من نقط الافتراق؛ لأن أثر الماركسية على الفكر الاشتراكي الحديث كان كاسحاً.

أما اللينينية فهي التطبيق الذي قام به لينين للماركسية.. ولم يكن لينين دائماً أميناً على هذه الأفكار أو مطبقاً حرفياً لها، ولم يكن أبداً - رغم اعترافه الذي لا يفتر بأستاذية ماركس - أسير كلماته، وقد طوع الكثير منها بمختلف التعلات التي كان حاذقاً في صياغتها لتتفق مع فكره الخاص وضرورات التطبيق التي جاءت شكلاً وموضوعاً، أي في الصورة وفي البلد - مناقضة لما تنبأ به ماركس - فقد تصور ماركس أن تقوم الثورة في أكثر الرأسمالية تقدماً عندما تصل متناقضات الرأسمالية إلى مرحلة الثورة، وأن يقوم بها العمال.. وهو تصور المفكر والمنظر الذي يسير مع التطور النظري حتى النهاية - ولكن لينين بطبيعته العملية رأى أن من الممكن أن تحدث الثورة في أضعف حلقات السلسلة الرأسمالية - أي أكثر الدول الرأسمالية تخلفاً، واستطاع بفضل الحزب - وليس العمال - أن يحقق ذلك.

ويمكن القول أن لينين «حرّف» - بلغة الماركسيين - أفكار ماركس بأكثر مما حرّف فيها زعيم المحرّفين «برنشتين» وإن اختلف الاتجاه.

والتطبيق اللينيني للفكر الماركسي هو ابن خالص لـ لينين، وقد فرضه لينين على روسيا التي لم تكن مهيئة له، وعلى رفاقه الذين اختلفوا معه ورفضوا فكرته.. وقد استطاع ذلك بفضل إيمانه المصمت الذي جعله كالصخرة، وبفضل ذكائه وعدد آخر من المواهب والملكات التي لا يمكن أن ينكرها عليه أي مؤرخ نزيه، وإن لم يكن من بين تلك الصفقات «العظيمة»

أو «العدالة».. إلخ.. ومن هنا فإن من العسير جداً أن نجد اسماً لهذا التطبيق غير اللينينية، وهو الملاذ الأخير والحل الذي وجهنا إليه القرآن.

والماركسية واللينينية متكاملان من ناحية أن الماركسية تمثل الفكر، واللينينية تمثل التطبيق.. الماركسية تمثل الهدم.. واللينينية تمثل البناء، وقد كان ماركس أستاذاً في التنظير، ولكنه كان «هاوياً» في التنظيم..؟.. ولم يستطع أن يكفل للدولية الأولى الاستمرار أكثر من بضع سنوات، وعندما ضاق بنشاط معارضيه فيها غسل يديه منها ونقلها إلى الولايات المتحدة لتموت في هدوء.. وهو تصرف لم يكن ليتصور أن يسمح به لينين.. الذي كان أستاذاً في التنظيم والمناورة.. أما في التنظير فإن مساهمته الحقيقية هي فكرته عن الحزب، وحتى هنا فإنه أميل للتنظيم، لأن الحزب هو الجهاز التنفيذي للتنظير الفكري.

ومع أن التطبيق اللينيني للفكر الماركسي لم يكن أميناً، ولم يظفر عندما بدأ لينين بموافقة كبار المنظرين الماركسيين، سواء من الروس مثل بليخانوف الذي تتلمذ عليه لينين أول حياته، أو كاوتسكي الذي انتقلت إليه زعامة المذهب بعد انجلز أو روزا لوكسمبورج المفكرة البولندية الألمانية النابغة، إلا أن الانتصار العملي للتطبيق اللينيني، وما يعنيه هذا من مناصرة دولة عظمى بكل مواردها وإمكاناتها له غطى على كل هذه المعارضات وأعطاه النجاح حكم الصحة والسلامة، وبعد جيل «الصحابة» الذين صاحبوا ماركس أو انجلز، أو التابعين لهما.. لم يجرؤ مفكر شيوعي على نقد لينين، بحيث أصبح الوثن الأعظم الذي لا يمس للشيوعية الحديثة.

### الرأسمالية:

ظهرت الرأسمالية كمرحلة اقتصادية متميزة مع ظهور كبار التجار وتضخم الفوائض والتراكم، وما جاء به النهب الاستعماري من غنائم وثروات، مما أبرز العنصر المالي الذي استطاع تمويل الثورة الصناعية التي عادت بأضعاف ما أنفق عليها.

وحدث هذا في أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على وجه التقريب.

والرأسمالية كأسلوب عمل يقصد بها حرية العمل، و«الليبرالية» تمييزاً لها عن المرحلة التي سبقتها وكانت خاضعة لبقايا نفوذ الإقطاع وقيود الطوائف (الحرفية أو طوائف التجار)، والمرحلة التي أعقبتها في بعض الدول، وهي الاشتراكية والشيوعية التي يحل التخطيط المركزي فيها محل الحرية.

وقد بدأت الرأسمالية على يدي الأفراد، سواء كان ذلك في مجال التجارة أو الصناعة..ومن هنا اقترنت بالفردية، حتى وإن تطورت إلى صور من الجماعية كشركات المساهمة، لأن في أساس هذا التنظيم الجماعي الوازع الفردي.

وفي هذا البحث فإننا نعني بالرأسمالية النظام الذي ينبثق عن الفرد ويستهدف الربح ويلوذ بالحرية.

### الطابع الأوروبي للرأسمالية والشيوعية:

هناك حقيقة أساسية يجب أن تكون ماثلة دائماً نصب أعيننا ونحن نعالج الرأسمالية والشيوعية لما تتضمنه من دلالة.. تلك هي أنهما معاً ثمرتان خالصتان للتربة الأوروبية، وأنهما يحملان وراثته هذه التربة، فالرأسمالية النمطية حدثت في أوروبا نتيجة لعدد من التطورات الخاصة بالمجتمع الأوروبي على وجه التحديد.. ولولا هذا لكان من الممكن أن نتحدث عن «الرأسمالية» في مختلف مراحل التاريخ، وسواء حدثت في روما أو بغداد، ولكن هذه الصور من الرأسمالية لم ترزق ما رزقته الرأسمالية الأوروبية من ملايسات وعوامل جعلتها - دون غيرها - هي الرأسمالية النمطية.

ومع أن الشيوعية حاولت أن تكون موضوعية ومجردة، وأقامت بناءها على أساس من التنظير الفكري الخالص.. إلا أن هذا التنظير الفكري

الخالص لم يكن موضوعياً ومجرداً تماماً؛ لأنه استلهم التنظير الأوروبي.. وعاد إلى ديمقريطس وهيرقليطس اليونانيين اللذين كانا أو من دعا إلى تنظير مادي.. ولم تستطع الشيوعية أن تتحرر من الإطار الأوروبي «فتصويرها للإقطاع مثلاً تصوير أوروبي خالص، وفكرتها عن الدين هي الفكرة عن الكنيسة المسيحية الأوروبية، والرأسمالية فيها - هي الرأسمالية التي قامت في إنجلترا في النصف الثاني للقرن الثامن عشر.. ولما كان معظم المفكرين الاشتراكيين الأوروبيين - إن لم يكونوا كلهم - جهلة بالإسلام وتاريخ الشرق العربي والإسلامي، وأن تاريخ الحضارة لديهم محصور في أوروبا، يبدأ من الحضارة اليونانية، فالرومانية، ثم الرينسانس فالقوميات الأوروبية المعاصرة (إنجلترا - فرنسا - ألمانيا.. إلخ).. فإنهم قد تصوروا أن تنظيرهم للاشتراكية تنظير عام ينطبق على كل دول العالم.

وإلى هذه الحقيقة تعود غربة الاشتراكية عن البيئة العربية أو الشرقية، وأنها تتحدث بلغة غير مفهومة، وتعتمد على تطورات وملابس لم تحدث (بالصورة التي تعرضها) في الشرق.. ومن هنا جاء تخلخلها، وأن دعائها الحقيقيين هم من الأجانب، أو من الغرب الذين تشربوا الثقافة الغربية أكثر مما تشربوا الثقافة العربية، أو من اليهود»<sup>(١)</sup>.

وعندما يتصدى كاتب مسلم للحديث عن الرأسمالية والشيوعية، فإنه يمكن أن يقدم إضافته الخاصة نتيجة لجهل الفكر الأوروبي بما قدمه الإسلام من ناحية، والتطور الخاص والمختلف عن التطور الأوروبي للمجتمعات الآسيوية والأفريقية من ناحية أخرى.. وهو يرى - وله الحق - أن قسمة البشرية ليست حتماً ما بين الرأسمالية أو الشيوعية.. أن هناك البديل الثالث الذي يقدمه الإسلام والذي يتفق مع طبيعة هذه الدول التي كانت مهبط الأديان السماوية.

---

(١) كتابنا «بيان رمضان»، ص ١٣٩-١٤٠.



## أهمية الموضوع:

على أن هذه الإشارة (وجود البديل الإسلامي عن الرأسمالية والشيوعية) يجب أن لا تنسينا الأهمية الكبرى للموضوع.. إن العصر الحديث هو إلى حد كبير عصر المذاهب السياسية التي تقطبت في النهاية - وحتى يظهر البديل الإسلامي - ما بين الرأسمالية والشيوعية، واقتسمت العالم.. وحتى المجموعة التي رفضت هذا التقسيم فإنها تأخذ به اقتصادياً وإن رفضته سياسياً.. أو أن تكون أقرب إلى الواحد منها إلى الآخر، فليس هناك حيدة تامة.

وقد اقتربت الرأسمالية بالحرية.. والنجاح.. وكانت - ولا تزال - ذات سحر خاص؛ لأنها تستجيب لما تهوى الأنفس من نزوات وشهوات وطموح وتطلعات.. واكتشافات واختراعات، وهي «غانية» المذاهب التي تبهر الناس بجمالها واستثارتها وأضوائها، ولم تفقد شبابها أو وهجها رغم تلك الوصمات العميقة التي أصابتها فترة الاستغلال الضاري في مستهل حياتها.

والشيوعية هي المذهب الذي خدع أكبر عدد من الأذكىاء في العالم، وبلور حيناً ما طموح وأماني الجماهير وكل المؤمنين بالمثل العليا، وعلى استعداد للتضحية في سبيلها، ووهب الملايين من الرجال والنساء في أربعة أركان العالم حياتهم لها، عندما كانت الفكر المفتوح لإتقاذ الجماهير من جحيم الاستغلال الرأسمالي، وقبل أن يصلبها لينين على الصليب الروسي، ومع أن وجهها القبيح قد ظهر عندما نالت السلطة، وكشف التطبيق عن نواحي النقص الفادحة فيها، وأنها لا تقل استعباداً عن الرأسمالية، بل تجاوزها، فإنها لم تفقد هيمنتها على نفوس جماعات عديدة، ولا تزال بالنسبة لجماعات أخرى تضيق بالرأسمالية «أهون الشرين»، وفي جميع الحالات فإنها تتغذى على الأخطاء، وتقوم بدور في المعارضة يمكنها من التنديد بالأوضاع القائمة، والمزايدة على المستقبل، وتعد أقوى من أي معارضة أخرى، لأنها تجمع ما بين الدعوى العلمية والشعارات

الديماجوجية.. وقد استطاعت أن تصوغ سبيكة من «القدرية» العلمية التي تؤكد «حتمية» انتصارها.

ومع أن الرأسمالية أوروبيتان، كما ذكرنا، إلا أن العالم يعيش في العهد الأوروبي، وكل المثقفين في الدول الأفريقية والآسيوية تأثروا - بدرجات متفاوتة - بالحضارة الأوروبية، وتشربوا بدرجات متفاوتة بها وبالرأسمالية والشيوعية.. ومن هنا فإن من أكبر الأخطاء أن يعزف المفكرون الإسلاميون عن دراسة الشيوعية أو الرأسمالية، لأنهما - سواء أحبوا أو كرهوا - أكبر القوى المؤثرة في العصر الذي نعيش فيه، ومن أكبر التحديات التي تواجه الأديان، وبوجه خاص الإسلام الذي يعد أقوى الأديان السماوية فعالية وحيوية وشمولاً للمجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكذلك لا يفيد في شيء التقليل من أهميتها أو أخذها مأخذاً هيناً، أو تصور أن الدعوة الإسلامية يمكن أن تنتصر عليهما دون جهود دائبة تتضمن فيما تتضمنه دراسة الماركسية دراسة علمية دقيقة تعود إلى مراجعها الأصلية، ولا يجزئ عنها تلك النقول التي يطيب لبعض الكتاب الإسلاميين الاستشهاد بها - فهذا لا يغني عن الحقيقة شيئاً - فلكي نأمن مكر قوم، فعلينا أن نتعلم لغتهم، وبقدر ما نحقق هذا، بقدر ما ننجح فيما نريد.

### روح المعالجة:

جعلنا روح المعالجة الأمانة في العرض والموضوعية في النقد، ولم نتردد أبداً في ذكر حسنات وسوءات كل من الرأسمالية والشيوعية، فليسا بعد أسوأ من الخمر والميسر، وقد قال القرآن أن «فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا»، كما وجهنا القرآن «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ»، كما قال «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ».

ونحن نعلم أن كارل ماركس يبدو لكثير من المسلمين، كما لو كان الشيطان الرجيم، كما يبدو لبعض المسحيين، كما لو كان المسيح الدجال، أو

كما يقولون Ant-Christ، ولكن هذا لا ينفي أنه كان كاتبًا عبقرياً، وأن كتاباته أثرت - وحتى الآن لا تزال تؤثر - على الملايين، بل وطبعت الفكر الحديث ببصمتها، ولم تكن لتصل إلى هذا المدى لو لم يتوفر لها الإبداع والأصالة.. وقد تحدث الأستاذ عباس محمود العقاد عنه في بعض كتبه كما لو كان آفاقاً، ورماء بأفزع الأوصاف، مستخلصاً ذلك من بعض الوقائع أو الحوادث أو الملابس، وهو أسلوب بعيد عن النقد العلمي والموضوعي، وأقرب إلى التشهير الدعائي والصحفي، ونحن لا يهمنا ماركس كفرد، ولكن يهمنا النظرية التي قدمها والتي لم يحاول العقاد أن ينقدها، ومن الصعب القول إن العقاد كان يستهدف بكتابات تلك وجه الإسلام، كما قد يظن بعض السذج، أولاً: لأن هذا المنهج يخالف منهج القرآن الذي يأمر بالعدل رغم شأن العداوة، وهو أمر بعيد أن يسلكه العقاد «الجبار» وثانياً: لأن الدفاع عن الإسلام لا يكون بهذه الطريقة، وثالثاً: لأن العقاد نفسه رغم «الإسلاميات» التي عالجها من باب العبقريات - وهو مذهبه الخاص في التاريخ - هاجم الهيئة التي رفعت لواء الإسلام في العصر الحديث، عندما احتدمت العداوة بينها وبين الحكومة التي حلت الإخوان المسلمين، وفتحت باباً للفتنة لم يغلق حتى الآن.. وفي صبيحة اليوم الذي اغتالت فيه الحكومة والسراي الإمام الشهيد حسن البنا، كتب العقاد مقالة طويلة في صدر صحيفة الأساس اليومية (١٢/٢/١٩٤٩م) متغنياً بمآثر الملك فاروق لمناسبة يوم ميلاده، رغم أن مبادل فاروق ومساخره كانت قد جعلته سباً في جبين الإسلام والمسلمين، وسخرية رجل الشارع المصري، فضلاً عن المفكر الموضوعي.

والذي لا ريب فيه أن ماركس كان مفكراً عميقاً مؤمناً أشد الإيمان بفكرته، وأنه عندما فضح الرأسمالية وندد بوحشيتها، أصاب الحقيقة من ناحية وقدم خدمة كبرى للبشرية من ناحية أخرى، كما أن تنبؤاته من منطلق نظريته، وإن لم تصب في تفاصيلها، إلا أنها قاربت الحقيقة في كليتها، وإنه في جهالته بالإسلام - وهي الجهالة التي لم ينجو منها مفكر أوروبي واحد - لم يجد البديل الذي يخلص نظريته مما التصق بها في مزلق.. والماركسية

بعد أوروبية الجذور، وقد كانت أوروبا ولا تزال وثنية مادية - وحتى في الفترة المسيحية التي هيمنت فيها المسيحية على أوروبا، فإن الروح الرومانية روح أوروبا الحقّة تقمصت المسيحية وسيرتها في ركابها، والنظرية التي تذكر في مواجهة الشيوعية - وهي الرأسمالية لا تفضل الماركسية في هذه الناحية، فهي أيضاً مادية وثنية.. والسرف المذهبي بعد ليس جديداً أو طارئاً على عالم المذاهب.. أنه السمة التي تغلب عليها في معظم الحالات.

ومن الظلم أن نحاسب ماركس بما فعله لينين، لأن لينين كما قلنا طوع آراء ماركس تطويماً مبتسراً، وخالفها في كثير من الحالات، إن ماركس كان مفكراً ومنظراً ومجاله عالم الفكر والكتابة، أما ما فعله أتباعه باسمه، فقد تبرأ منهم عندما أشار في إيجاز «لست ماركسياً»، ومثله في هذا كالدعاة الذين لا يحاسبون على ما غيرت أممهم وبدلت في توجيهاتهم.

وليس هذا دفاعاً عن ماركس أو الشيوعية - فإننا لم نتردد في إدانة أخطاء ماركس - وأخطاؤه فاحشة، أو سقطات الشيوعية، وسقطاتها قاتلة، ولكنه النهج الإسلامي في الموضوعية والعدالة.

إن المفكر المسلم عندما ينقد الماركسية، فإن ذلك إنما يتم بفضل عبقرية الإسلام، وما اتسم به التنظير الإسلامي من أحكام وشمول، وهي عوامل لم يكن لها حساب ولا يزال - ليس لها حساب - بالنسبة للفكر الأوروبي.

وقد قرأنا عديداً من الكتب الإسلامية التي كتبت نقداً للشيوعية، وبعضها بأقلام أساتذة جامعيين أو دعاة إسلاميين جمعوا إلى جانب ثقافتهم الأزهرية ثقافة أوروبية.. فلم نجد فيها ما يغني أو يثمر.. والأغلبية الساحقة منها سطحية هزيلة يغلب عليها التحامل وضيق الأفق.. ولا تجد فيها حجة تقارع حجة، وإنما هي الاعتبارات الذاتية.. والنقول والاستشهادات من هذه الكتب أو تلك، وليس بمثل هذه الطريقة يمكن أن ننقد الماركسية، بل إن مثل

هذه الكتب يمكن أن تكون أكبر دعاية للشيوعية، لأنها تخيب الأمل فيما يعرضونه من دعاوى باسم الإسلام.. أو ما يعيرونه على الشيوعية.. وقد آمن عدد كبير من الناس بالماركسية نتيجة لقراءتهم كتبًا ضد الماركسية!

### نقيسهما بمقياس الإسلام.. وليس العكس:

بالرغم من الأهمية العظمى للرأسمالية والشيوعية، فلا يخالجننا أقل شك في أن الإسلام أعظم منهما.. فقد ظهر منذ ألف وأربعمائة سنة.. ورغم ما إعتور العالم الإسلامي من خطوب وكوارث.. وما تعرض له من غزو واحتلال.. فلم يفقد المسلمون أبدًا ثقتهم في الإسلام.. وزادت هذه الخطوب استمساكًا به.. وأصبح هو القوة الدافعة وراء مقاومة الاستعمار وحروب التحرير.. وبعد عهد طويل من التجاهل الأوروبي أخذت أوروبا شيئًا فشيئًا تتعرف على الإسلام.. ولم تكن الرأسمالية أو الشيوعية معروفة منذ ثلاثة قرون - وقد لا تبقى بعد ثلاثة قرون - ولكن الإسلام الذي ظهر من ألف وأربعمائة عام سيبقى.. وسيشهد النظم الأخرى التي ستحل محل الرأسمالية والشيوعية.

لذلك فإننا نقيس وجوه الائتلاف والاختلاف ما بين الرأسمالية والشيوعية من ناحية، والإسلام من ناحية أخرى لإيضاح مدى اختلافهما أو اتفاقهما مع الإسلام، وليس العكس، ولا نتصور أبدًا أننا نكسب للإسلام شيئًا عندما يتفق، أو يخسر شيئًا عندما يختلف مع هذا المذهب أو ذاك، فلا يشرف الإسلام أن يتفق، ولا يبخره أن يختلف، وإنما يشرف الرأسمالية والشيوعية أن يتفقا مع الإسلام في بعض الوجوه، ويشينهما أن يختلفا عنه في وجوه أخرى.. والحكمة من إجراء هذه المقارنة هي القضاء على الادعاءات التي تسخر الإسلام تبعًا لأهواء أصحابها واتجاهاتهم من

الرأسمالية والشيوعية.. وتجعل الإسلام نصيراً لهذه أو تلك.. والحقيقة أن الإسلام لا يمكن أن يكون رأسمالياً أو شيوعياً.. إنه الإسلام فحسب.. وعندما نحلل مقومات كل من الرأسمالية والشيوعية.. فإننا نجد أن بعض هذه المقومات تتفق مع الإسلام وبعضها الآخر يختلف.. وهذا هو ما يقدمه البحث.

### ضرورات الإيجاز:

في مثل هذا البحث الذي أريد به تقديم الخطوط العامة عن الموضوع للقاعدة العريضة من الناس.. لا يمكن أن نسهب أو نكيل.. ولو فعلنا لاحتجنا إلى ألف صفحة.. ولاستحال بالتالي أن يصل إلى القاعدة العريضة المنشودة.. ومن هنا كان علينا أن نحقق معادلة صعبة ما بين الإيجاز من ناحية.. والإيضاح من ناحية أخرى.. بحيث يمكن لأكبر عدد فهم الخطوط الأساسية له دون إقبال عليه في الوقت أو المال.. وقد حاولنا هذا معتمدين على فطنة القارئ من ناحية.. والاقتصار على الأساسيات من ناحية أخرى.

## [٢]

### الجانب الأصولي

كل نظرية أو عقيدة أو مذهب تأخذ خصائصها ومميزاتها وشخصياتها من الأصل الذي انبثقت عنه، شأنها شأن كل مولود يرث خصائص أبويه وأسلافه، ويتأثر بعوامل بيئته، وحتى الأديان التي تمثل التجريد والإطلاق والموضوعية، وأنها تستلهم مبادئها من الله تعالى، فإنها لا يمكن أن تخلص من إसार الوضع والبيئة ما دامت قد أنزلت للناس، لأن الله تعالى جلت حكمته وضع للمجتمع الإنساني، وللكون بأسره سُنَنًا يخضع لها كل شيء في هذا الكون والمجتمع.. ومن هذه السُنَن أن يتلاءم كل دين مع الذين أنزل إليهم، والوقت الذي أنزل فيه.. فالله تعالى لم ينزل الأديان مصادمة للطبائع والأصول التي وضعها، ولكن اتساقاً معها.. واتباعاً لها، وإلا لما كان هناك داع لتعدد الأديان وتباين النبوات.. وكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن الأصل في الأديان كلها واحد.. ولكن القوالب والتفاصيل متغيرة ومتفاوتة تبعاً لتفاوت الزمان والمكان والسكان.

وعن هذا الجانب الأصولي يمتد خط عريض وحاسم في الائتلاف والاختلاف ما بين الرأسمالية والشيوعية من ناحية.. والإسلام من ناحية أخرى.. وهو خط رئيسي يتبدى وينعكس على كافة الجوانب الأخرى.

ذلك أن الرأسمالية والشيوعية نظريتان نشأتا في بيئة معينة وظروف معينة، وتحمل كل منهما رواسب ووراثات وضعها، ويستحيل على كل منهما أن تخلص منه، قدر ما يستحيل على المولود أن يتخلص من عوامل وراثته أو للنتيجة أن تتخلص من المقدمات التي بنيت عليها.

### آثار الأصل على الرأسمالية:

مع أن بعض قسّمات الرأسمالية كتراكم الأموال في أيدي التجار قد ظهرت في كثير من دول عصور مختلفة، فإن الرأسمالية «الاصطلاحية» بكافة مقوماتها وقسماتها إنما ظهرت في أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في بيئة معينة، وبفضل ظروف معينة، وحملت وراثات هذه البيئة والظروف.. ويمكن تقصى ذلك منذ أن ظهر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر «البورو» Borough الذي كان المحضن الدافئ الذي سمح بظهور الرأسمالية، حتى ظهور الرأسمالية بالفعل، وما تطورت إليه بعد ذلك وأخذته من صور، وخلال هذه المسيرة الطويلة، من البداية المتواضعة حتى الشركات العملاقة والمتعددة الجنسية، كانت خصائص المجتمع الذي انبثق عن «البورو» وحمل اسمه - فأصبح يطلق عليه المجتمع البرجوازي - واحدة «لأن محور هذا المجتمع لم يكن الجماعة، ولكن الفرد، ولم تكن الروابط التي تربطه الالتزام المتقابل، ولكن التعاقد الحر.. ولم تكن طلبته العدالة، ولكن الربح، ولم يكن طابعة الحفاظ والاستقرار، ولكن التطوير والتجديد.. وظهر الآلة الجديد (المال) وكنائسه من بنوك وبورصات، وكان وازع الربح أشبه بغريزة جنسية مكبوتة انطلقت فافترت بكل ما فيه من عرامة الشهوة: المثل والقيم والتقاليد والعرف، وغرست في لحظة الاغتصاب هذه، بذرة مجتمع حمل الطبيعة العدوانية للحظة التي أوجدته، وأشبه بطوفان جائح حطم الأسوار التي أقامتها الكنيسة، وكان أبرزها تحريمها الربا وتحديدها للسعر العادل.. فتهاوت وظهر على أنقاضها البنوك والإئتمان وفيوض الإنتاج التي تقدمه مصانع تحركها قوى لا تكل ولا تمل وتفوق «الجني» الخرافي في ألف ليلة وليلة.

ولم يعدم هذا المجتمع فلسفة وتطهيراً يبرر به كلبيته وانطلاقة، فقال دعائه إن المجتمع ليس إلا مجموعة أفراد، ومصالحته هي مصلحة هؤلاء الأفراد، ولما كان كل فرد أدرى بمصلحته وأقدر على تحقيقها، فإن النتيجة



النهائية لانطلاق الأفراد، وعمل كل واحد لمصلحته هي مصلحة المجتمع، أما ما يوجد هذا الانطلاق من تراحم أو تصادم أو شرور أو تضاد، فقد قالوا إن «اليد الإلهية» التي لا نراها ستقضي عليه وستقيم عوجه وتصلح شعته عن طريق قوانين طبيعية محكمة.. فإذا رفع أحد أصحاب الأعمال أثمان منتجاته ليزداد ربحاً، انفض من حوله التجار.. وألزمه قانون المنافسة النزول بها، وإذا زاد في الإنتاج أرغمه قانون العرض والطلب على التزام الحد المطلوب.. وإذا بخرس أجور العمال انفضوا من حوله وتحولوا إلى غيره.. وأخيراً فإذا تناسل السكان وازدادوا بأكثر مما ينبغي لهم.. فستكون الفاقة والأمراض الجزاء العادل والقسمة الطبيعية.. حتى يعود بأعدادهم إلى الحد الأمثل، أو يصطلوا بويلاتها.

وقالوا إن وازع الربح يطلق المبادئات، ويثير النشاط، ويعطي الأذكاء والنشطين حقهم المشروع في النجاح، ويجعل الكسالى والخاملين يبيوعون بالفشل وهو ما يستحقونه، أو يكون عليهم الإقلاع عن هذا السلوك.. وهو أمر طيب.

ومع أن هذه الادعاءات جاءت من منطلق دفاع وتبرير الرأسماليين لوجهة نظرهم، وأنها تتضمن مغالطات عديدة وأخطاء فاحشة، إلا أن هذا لا ينفي أنها تتضمن كذلك - جانباً من الصحة - خاصة عندما نضع في اعتبارنا القيود التي فرضتها الطوائف والسلطات على حرية العمل، لذلك، نجحت الرأسمالية الناشئة في أن تحقق - بتعبير أفسى وثيقة اتهام - ماركس في المانيفستو الشيوعي - ما فاق الأهرام المصرية، والطرق الرومانية، وأبدعت هذا العالم الباهر العجيب الذي نشهده اليوم.. والذي تعود كل حسناته وسيئاته أيضاً إلى المجتمع البرجوازي<sup>(١)</sup>.

والمقومات التي تتميز بها الرأسمالية منذ أن ظهرت حتى الآن هي:

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٩-١٤٠.

١- الفرد هو دعام الرأسمالية ووحدها، فهو لا يحتاج إلى قوة أو دافع خارجي لكي يعمل لمصلحته، أنه يعمل لمصلحته بوازعه الخاص، ولا يمكن لهذا الوازع أن يتوقف أو يفتر، فهو قوي ومستمر دائماً، وهو أدرى بمصلحته وأقدر عليها.. وهو دائماً صاحب المبادرة والإبداع.

٢- الحرية هي بيئة الرأسمالية، فالحرية تفسح المجال للإبداع الفردي، ثم هي تكشف الأخطاء التي لا بد أن تظهر وتتعدد في مثال هذا المجتمع، وتوجد من نفسها، وتلقائياً الطرق لإصلاحها.

٣- الكسب والربح هو الهدف الذي تستهدفه الرأسمالية، باعتباره الهدف الذي لا خلاف عليه.. فكل الناس يسعون إلى الكسب، أو على الأقل يسعون به، وترى الرأسمالية أن الربح الفردي يؤدي إلى التقدم الاجتماعي.

وعندما زحفت الرأسمالية على الديمقراطية وجعلت منها واجهتها السياسية، فإنها نقلت هذه المبادئ.. فالفرد في الدولة الديمقراطية هو الوحدة والخلية واللبنة.. ومن مجموع هؤلاء الأفراد تتكون تكوناً اختيارياً إرادياً الأحزاب التي تقابل الشركات في الرأسمالية، وهذه الأحزاب تستهدف الحكم، كما تستهدف الشركات الربح.. وأسلوب عمل الديمقراطية هو نفسه أسلوب عمل الرأسمالية: أي الحرية التي لا تقفها إلا الحرية نفسها.. أعني حرية الآخرين.

وكما أننا لا نرى في الرأسمالية حديثاً عن القيم أو المثل وما هو فوق الربح والسعادة المادية، فكذلك تقوم الدولة الديمقراطية على مثل هذه المبادئ.. ووثنها المعبود هو «إرادة الشعب» التي هي بدورها مجموع إرادات الأفراد، بصرف النظر عن أي موضوعية أو مبدئية في هذه الإرادة.

### آثار الأصل على الشيوعية:

كما أن الرأسمالية ظهرت في أوروبا في فترة معينة، وبحكم تطورات اقتصادية أشرنا إليها في الفقرة السابقة، فإن الشيوعية ظهرت في أوروبا في الفترة التي وصلت فيها الرأسمالية إلى إحدى المنعطفات في تطورها.

ففي منتصف القرن التاسع عشر كانت الرأسمالية قد أسفرت عن صفحاتها، وأبرزت حسناتها وسوءاتها، وحققت انتصارها، ولكن بثمن فادح، وعلى أشلاء ما حطمته من صناعة حرفية، وبفضل ما اعتصرت من عرق العمال، ووصمها ذلك بوصمة الاستغلال والوحشية.

ولكن التصدي للرأسمالية لم يأخذ شكل الرد «الفني»، ولم ينهض له علماء اقتصاد أمثال آدم سميث أو ريكاردو، ولكنه كان حظ المفكرين والدعاة الإنسانيين.. فقط كانت الرأسمالية هي الشرعة المقررة والمعتمدة في الاقتصاد وقتئذ.. ولم يكن نجاحها - رغم ما اصطحب به من أزمات - محل شك.. وإنما كانت السوءة القائلة فيها هي وحشيتها.. ولا أخلاقيتها واستغلالها للعمال، وتلك الصور البشعة والشائنة من تشغيل الأطفال والنساء والتكالب على الربح.. وكانت هذه الجوانب تثير بالدرجة الأولى المفكرين والدعاة أكثر مما تثير الاقتصاديين والفنيين.. ولذلك أخذ الرد على الرأسمالية الفردية قالباً اشتراكياً وإنسانياً في كثير من الحالات.. وكان الشخص الذي تبلورت فيه عداوة الرأسمالية - كارل ماركس - دارساً للقانون والفلسفة، ونال درجته العلمية عن فلسفة ابيقور.. ولم يدخل ميدان الاقتصاد أو يحاول الرد الفني الاقتصادي على الرأسمالية إلا في مرحلة تالية، وكجزء من نظرية فلسفية طموح أراد بها أن يثبت أن التطور في المجتمع والطبيعة يقوم على محور مادي.

ومن هذا المنطلق تختلف «الشيوعية» عن الرأسمالية في أنها ليست مجرد «أسلوب» للعمل، ولكنها نظرية تقوم على مبادئ فلسفية تفسر تطور المجتمع والطبيعة.

وعندما بدأ ماركس مهمته التاريخية كان أمامه ثلاثة مصادر رئيسية تذكرها الكتب الاشتراكية هي:

(أ) الاقتصاديات البريطانية التي قام بها آدم سميث وريكاردو ومالتس وغيرهم.. وتوصلت إلى عدد من المبادئ الاقتصادية الهامة كاعتبار العمل أصل القيمة.

(ب) الفلسفة الألمانية التي كانت تمر بمرحلة من النشاط والازدهار، وتمثلت بوجه خاص في هيغيل وإحيائه لفكرة «الديالكتيك» اليونانية القديمة، أو كما يسمونها «الجدلية».

(ج) التجارب والمحاولات والأفكار الاشتراكية الفرنسية التي حدثت كرد فعل للثورة الفرنسية، وما أحدثته من خيبة أمل، نتيجة لأنها كانت ثورة البرجوازية الناهضة، أكثر مما كانت ثورة الشعب العامل، وعبرت عن ذلك كتابات سان سيمون، ولابلان، وفورييه، وبرودون..إلخ.

هذه هي المصادر التي تذكرها الكتب الاشتراكية والتي كانت تحت يدي ماركس عندما بدأ عمله، ولكن هناك مصدرًا آخر قلما تعطيه الكتب الاشتراكية حقه في الأهمية، تلك هي الدراسات البيولوجية لتطور المجتمع التي وصلت على ذروتها في كتاب «دارون»: «أصل الأنواع»، وأعطت ماركس أحد المفاتيح الرئيسية في فكرته عن الصراع، ومكنته من نقله من مجال «الإحياء» إلى مجال «الإنتاج».

كان ماركس هو رجل القدر، فقد توفرت له المادة الأولية اللازمة لصياغة نظرية متكاملة، وضمت الاقتصاديات البريطانية، والفلسفة الألمانية، والتجارب الفرنسية، فضلاً عن نظرية التطور التي جاء بها دارون، كما توفر في شخصه الذكاء والعمق الذي يجعله يحسن معالجة هذه المادة الأولية وتحليلها ومزجها واستخلاص «الإكسبير» منها، ووهب تلك الجذور المقدسة

التي تجعل من النابغ عبقرياً، جذوة الخلق والإبداع، كما كان قارئاً نهماً وموسوعي المعرفة (بالمعنى الأوروبي) من الميثولوجيا اليونانية حتى الاقتصاديات الرأسمالية، وحتى ما قد أخذ عليه وكان محلاً للنقد، فإنه فيما يبدو كان مطلوباً في رسالته، كحقيقة أنه سليل أحبار إسرائيليين اضطرتهم الظروف لتغيير الجلد السطحي، أو الاسم المعلن، في حين أنه كان يحمل - حتى النخاع - رواسب وخصائص هذا الجنس من طموح وذكاء وادعاء وشنآن في العداوة، وقدرة على النقد والهدم، وما فرضته عليه الظروف من فاقة مدقعة أضرمت مشاعر الكره والسخط والنقمة التي لا هواده فيها.. نقول إن هذه كلها كانت عناصر مطلوبة لرسالة هذا الهدام الكبير، وليس أدل على ذلك من أن ماركس ظهر وعمل في القرن التاسع عشر وهو قرن العمالة والعباقرة في كل علم وفن.. وقد ظهر في الاقتصاد من توصل إلى نظرية فائض القيمة والأزمات، قبيل أن يصل إليها ماركس، وهو الاقتصادي الألماني جوهان كارل رودبرتس (١٨٠٥-١٨٧٥م)، كما كان ريكاردو قد توصل إلى أن العمل هو أصل القيمة، وفي مجال الإحياء ظهر داروين وغيره.. ولكن واحداً من هؤلاء لم يكن له المزاج الثوري والمعرفة الموسوعية والظروف الخاصة التي كانت لماركس، والتي أسهمت في مجموعها في تكوينه وتمييزه عن الآخرين، وتمكينه من التوصل إلى نظريته.

بالإضافة إلى هذا كله فلم يكن ماركس في غير زمانه ومكانه، كما حدث لكثير من الفلاسفة والمفكرين وأثر على فلسفتهم.. لقد كان في زمانه، وفي المكان الذي كانت تدور فيه رحى المعركة، ومن هذا المكان «لندن» التي كانت وقتئذ قلب العالم.. استطاع أن يتابع الرأسمالية البريطانية، والحركات العمالية وثورة «الكوميون» في فرنسا، وكانت هذه التطورات كلها تثرى فكرته بالشواهد والأمثلة والأدلة الحية.

وكان حجر الزاوية في الماركسية هو «الجدلية» التي أحكمها ماركس باعتباره دارساً للفلسفة اليونانية التي ابتدعها، وتلميذاً لهيجل الذي جعلها

محور فلسفته، ولكن جدلية هيجيل كانت مثالية، الخط الرئيسي فيها هو «الفكرة»، واعتقد ماركس أن جدلية هيجيل «تسير على رأسها»، وأراد لها أن تسير على قدميها.. ومن هذا المنطق دخل ماركس مجال الاقتصاد باعتباره ممثل المادية وأوصله هذا إلى الإنتاج سواء كان معدات أو علاقات، وتعرض للرأسمالية من هذا المنظور، وانتهى إلى أن متناقضاتها تقضى عليها، وأن صراع الطبقات سيكفل في النهاية انتصار العمال، ولمس لمسة خفيفة «ديكتاتورية البلوريتاريا» والمجتمع الذي سيخلف الرأسمالية.. وبها تكونت «الماركسية» واستكملت قسماتها، سواء كنظرية في تفسير وتطور الطبيعة، أو تفسير وتطور المجتمع الإنساني.

### تلخيص لأثار الأصل على الرأسمالية والشيوعية:

وحتى لا ننسى، أو يبعدنا السياق (على اختصاره الشديد وتركيزه) عن آثار الأصل على كل من الرأسمالية والشيوعية، فإننا نجمله هنا.

### فهذه الآثار بالنسبة للرأسمالية:

- (أ) الرأسمالية أسلوب اقتصادي لا يقوم على مبدئية مجردة أو نظرية موضوعية، قدر ما يعود إلى الممارسة التي تثبت صدقها بمنطق النجاح العملي، وعندما زحفت على الميدان السياسي، فإنها لم تصطنع المبادئ قدر ما اصطنعت (الأعداد)، وهي أصلاً أداة اقتصادية، فالصحة هو ما تقوله الأغلبية بصرف النظر عن السلامة الموضوعية.
- (ب) نقطة الانطلاق في الرأسمالية ومحورها هي (الفرد) الذي لديه المبادأة والشجاعة، والذي يعمل تلقائياً - وبصفة مستمرة، ودون دافع من الخارج - لمصلحته، التي تصورت الرأسمالية في لا مبدئيتها وعدديتها أنها جزء من المصلحة العددية الكلية.. وبالتالي فإن مجموع مصالح الفرد ستمثل مصلحة المجتمع الذي هو مجموع الأفراد.

(ج) الحرية هي المناخ الذي يسمح بوجود الرأسمالية وازدهارها، فإذا قيل إن الحرية تفسح المجال للأخطاء، قيل إن الحرية تفسح المجال لمقاومة هذا والرد عليه، فضلاً عن أن إظهار الأخطاء الذي تسمح به الحرية سيحول دون تفاقمها وسيؤدي على معالجتها أولاً بأول.

(د) أن الدافع والوازع والهدف وراء كل هذا العمل الرأسمالي هو الربح في مجال الاقتصاد، والسلطة في مجال السياسة، باعتبار أن ذلك مطلب الجميع الذي لا خلاف عليه.

### وبالنسبة لشيوعية:

(أ) الشيوعية نظرية - وليست مجرد أسلوب - ولها أسسها النظرية وبراهينها وشواهداها من المنطق أو الفلسفة.

(ب) أنها ليست مقصورة على الاقتصاد، لأنها تحاول أن تفسر عمل الطبيعة وتطورها ونشاط وتفاعل المجتمع الإنساني، وتبني ذلك على أسس واحدة في الطبيعة والمجتمع.

(ج) أن أسلوب التطور في الطبيعة والمجتمع هو التفاعل الحركي ما بين الأضداد، وهو ما تطلق عليه «الجدلية المادية»<sup>(١)</sup> وما يتبعه من صراع بين الطبقات.

(د) أن المحور الذي يدور عليه رحي التطور هو المادة في الطبيعة والإنتاج في المجتمع، وأن هذه القوى تفرض نفسها فرضاً بصرف النظر عن إرادات الإنسان.

---

(١) تذكر المصادر الشيوعية ذلك باسم (المادية الجدلية) باعتبار أن الجدلية صفة للمادية، ولكن بعض المفكرين أثروا أن يجعلوا المادية صفة للجدلية باعتبار أن الجدلية هي الطريقة الرئيسية للتفاعل، وأن هذا التفاعل يمكن أن يكون مثاليًا، كما عند هيجل، أو ماديًا كما عند ماركس.. ونعتقد أن هذا أدنى إلى الصواب، ولهذا أخذنا به.

(هـ) ترى الشيوعية أن الرأسمالية تضمن متناقضات، نشأت أساسًا عن الاختلال في وسائل الإنتاج وعلاقاته بين من يقومون بالعمل، ومن يملكون المنشآت، ومن شأن هذه المتناقضات التي تتمثل التي تتمثل في الأزمات والبطالة والقلق.. إلخ.. أن تؤدي إلى الصراع ما بين العمال وأصحاب الأعمال، وتنتهي بهزيمة الرأسمالية أمام العمال، وقيام مجتمع تؤمم فيه وسائل الإنتاج لنفي الاختلال ما بين وسائل الإنتاج، وملكيته، وبذلك يطوي الصراع ما بين العمال وأصحاب الأعمال، ويقضى على المتناقضات ما بين الإنتاج والاستهلاك.

بالنسبة للملابسات التي مرت بالشيوعية، وأنها ولدت ولادة الموتورين في معسكر الحرب الطبقيّة، ونظرًا للمزاج النفسي للمفكر الذي وضع خطوطها النظرية وظروف حياته، فقد سرى فيها شأن العداوة مسرى الدم.. وأصبحت نوعًا من آلهة الانتقام تعمل بالكيد، والتآمر عند الضعف.. والبطش والسحق عند القوة، وانتفت منها كلية فكرة الأخلاقيات أو الآداب.

ولم يتحدث ماركس كثيرًا عن المجتمع الذي سيرت الرأسمالية وخصائصه المميزة، وان كان قد أشار على فترة من «ديكتاتورية البلوريتايا» واستخلص من تجربة الكوميون الفرنسي ما يكون على العمال أن يلحظوه خلال حربيهم مع الرأسماليين أو استحوادهم على السلطة.. وقد قام بهذه المهمة لينين.. ومع أن تجربة روسيا كانت بعيدة كل البعد عن التصور الماركسي، وغير صالحة للتطبيق في غير الظروف والملابسات الخاصة جدًا بما في ذلك وجد لينين نفسه - التي اقترنت بها - ورغم ما حفلت به التجربة من أخطاء فاحشة، إلا أن نجاحها النهائي، وأهواء النفوس، والتأثر بالدعاية، وعدم التعرف على حقائق الأمور وخوافيها، ووجود دولة كبرى تعمل بكل قوتها للدعاية لها.. كل هذا جعل التجربة تبدو وكأنها مثال لما يكون عليه التطبيق الشيوعي في العالم أجمع.



ويمكن أن يضاف إلى هذا ما أشرنا إليه في فقرة سابقة عن أن الرأسمالية والشيوعية معاً ماديتان، وأنهما نشأتا في البيئة الأوروبية وتأثرتا بها، بدءاً من الفلسفة اليونانية حتى الصورة الصناعية، وما بنين ذلك من إقطاع أو نهضة أو استعمار.. ولا تجد شاهداً واحداً استشهد به، أو أمثلة اطلع عليه المفكرون الذين وضعوا أسس الرأسمالية أو الشيوعية تخرج عن القارة الأوروبية، ولا يفوق جهل الرأسماليين بالشرق والإسلام، إلا جهل الشيوعيين لهما.

### آثار الأصل على الإسلام:

الإسلام أولاً وقبل كل شيء دين إلهي، وهذه الحقيقة الرئيسية تعني أنه يدور حول فكرة «الله» كما صورها القرآن، وتصوير القرآن لها يختلف عن تصوير الديانات الأخرى؛ لأنه يبعدها عن التجسيم أو الوثنية، وبذلك تنتقي فكرة «الإله الشخصي» التي نفرت المفكرين المعاصرين من الأديان التي تأخذ بها، وفي الوقت نفسه فإن القرآن أعطاها كل صفات الكمال والخلق والإبداع والقوة الحياة، وبهذا لم تعد «فرضاً» فلسفياً أو طبيعية مجردة.

والمصدر الرئيسي للإسلام عقيدة وشريعة هو القرآن يضاف إليه **الصحيح الثابت من السُّنة**.. ولكن هذه الحقيقة وإن أدت إلى تعدد مدارس وتيارات الفكر الإسلامي، فإنها لا تصل بها إلى حد القطعية، وهي ظاهرة تعود بدورها إلى حقيقة أخرى، تلك هي أن الإسلام لا يقر وجود «كنيسة».. أو رجال دين يحتكون وحدهم التأويل والتفسير ويملكون وحدهم التحليل والتحرير.

وهذه الخصائص حررت الإسلام مما يؤخذ عادة على الأديان، أو يجعلها وسيلة ارتزاق، أو حجراً على الأفكار، أو أن تتوقع داخل نصوص جامدة.

وبالنسبة للظروف الخاصة بالإسلام، ولما أراده الله تعالى له من أن يكون آخر الأديان، وأن يكون للبشرية كافة، فإنه لم يقتصر على الجوانب الروحية والعبادية، ولكنه وضع نظاماً وضوابط في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تعد جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الإسلامي، فالشورى في السياسة، وتحريم الربا وفرض الزكاة في الاقتصاد، والالتزام بالحدود في القانون، أمثلة لذلك.

وأعطى ذلك الإسلام طابعا «شمولياً» ولكن شموليته تختلف عن شمولية النظم السياسية؛ لأنها لا تنكر الفرد، على العكس أنها تعترف به وتعتبره وحده المجتمع الإسلامي، وتجعله أحد طريقيها نحو المجتمع، فالإسلام لا يعبر المجتمع متخبطاً الفرد، ولكنه يصل إلى المجتمع عبر طريقين هما التهذيب النفسي للفرد نتيجة للإيمان، والإصلاح الاجتماعي تطبيقاً للضوابط العامة التي نص عليها في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ويعترف الإسلام بأن الطبيعة البشرية التي يتكون من مادتها الفرد تتضمن ضعفاً، يمكن أن ينتهي إلى الخطأ، أو الشر، وهو يتقبل الفرد بهذه الطبيعة، ولكنه يعمل لهديته، كما يجعل الحسنات مكفرات عن السيئات.

وأملت هذه الحقيقة، بالإضافة إلى الطابع الشمولي للإسلام - على الإسلام أن يجعل العدل فيصلاً في العلاقات والتصرفات، سواء كان ذلك فيما يعنون الفرد من نزعات وتصرفات.. أو ما بين الفرد من ناحية والمجتمع من ناحية أخرى.

### وعلى هذا فيمكن تلخيص آثار الأصل على الإسلام:

(أ) إن الإسلام دين إلهي واسطة العقد فيه هي فكرة الله بالصورة التي يعرضها القرآن، ويجعلها متميزة عن تصورات الأديان الأخرى أو الفلاسفة.

(ب) لا يعترف الإسلام بكنيسة ولا برجال دين يحتكرون الفكر، أو الممارسة الدينية.

(ج) لا يقتصر الإسلام على الجانب العبادي - الفردي ولكنه يتضمن أيضاً الجانب الاجتماعي العام من اقتصاد أو سياسة أو اجتماع، مما يعطيه صفة شمولية، ولكنها تختلف عن شمولية النظم السياسية المعروفة، لأن تأثير الإسلام على الفرد لا يكون نتيجة لضوابط الدولة وحدها، ولكن أيضاً وبالدرجة الأولى نتيجة الإيمان - الطوعي والقلبي للأفراد.

(د) إن الفيصل الذي يحكم في التصرفات أو العلاقات هو العدل.

#### **آثار الأصل على الائتلاف والاختلاف ما بين الرأسمالية والإسلام:**

يتضح عند مقارنة آثار الأصل على الرأسمالية والإسلام أن هناك وجوهاً للائتلاف والاختلاف بينهما.

#### **فالرأسمالية تتفق مع الإسلام في الجوانب الآتية:**

(أ) تتفق الرأسمالية مع الإسلام في أن للإسلام جانبه الاقتصادي - المادي - والرأسمالية أساساً مذهب اقتصادي مادي.

(ب) تتفق الرأسمالية مع الإسلام في أن «الأصل في الأشياء الإباحة» وهو ما يمكن أن يترجم بلغة الرأسمالية إلى «الحرية»، وهي المناخ الذي يسمح بقيام الرأسمالية وازدهارها.

(ج) تتفق الرأسمالية مع الإسلام في الاعتراف بالفرد، وأنه لبنة المجتمع.

#### **ولكن الرأسمالية تختلف عن الإسلام في الوجوه الآتية:**

(أ) أن الإسلام، وأن كان له جانبه الاقتصادي، فإنه لا يقتصر على ذلك وهو يقدم نظرية كاملة في الوجود والكون والطبيعة وما فوق الطبيعة، في حين أن الرأسمالية لا تنظر إلى الحياة إلا من مضمون الاقتصاد.

(ب) أن الإسلام لا يرى أن وازع الربح يمكن أن يكون محرکاً كافياً للفرد لأداء دوره في المجتمع.

(ج) أن الإسلام وإن اعترف بالفرد.. وأن الأصل في الأشياء الإباحة.. إلا أنه يضع ضمانات رئيسية للحيلولة دون استغلال هذا الاعتراف.. وهو لا يقر فكرة أن الحرية في المجال الاقتصادي لا تتطلب حاجة لمثل هذه الضمانات بفكرة أنها تكشف الأخطاء وتؤدي إلى العلاج.. إن هذا قد لا يتم دائماً.. وبالضرورة.. وعندما يتم فإنه لا يحدث بالفعالية المطلوبة، ولا يخلو من الشوائب والمعوقات ويتطلب جهداً ومالاً ووقتاً تمثل ثمناً باهظاً يدفعه الجمهور.. إن الإسلام يرفض أن يسلم الضعفاء والفقراء للأغنياء والأقوياء بحجة أن هذا هو ثمن الحرية الذي لا مناص عنه، أو يتعلل بمختلف التعللات التي يتعلل بها الرأسماليون القساة.

أن «اليد الإلهية» المخفية في الرأسمالية تظهر بقوة ووضوح في الإسلام وتضع الضوابط داخل المبدأ العام للحرية.

(د) إن الإسلام له بالإضافة إلى ضوابطه ونظمه، أخلاقياته التي تأتي الاستغلال أو الخداع أو النفاق أو الفساد وكافة وسائل اجتذاب الأرباح التي تتقبلها الرأسمالية.. وهو لا يعتبر أن النجاح وحده هو معيار الصلاحية والسلامة، كما تذهب إلى ذلك الرأسمالية.

### وجوه الائتلاف ما بين الشيوعية والإسلام:

قد يبدو غريباً أن تتفق الشيوعية مع الإسلام في بعض الوجوه، وقد يصدم هذا عامة الناس الذين يرون أن الشيوعية أم الخبائث، ولكن القرآن لم يخل أم الخبائث نفسها - الخمر - من منافع، وإن كان إثمها أكبر من نفعها، وبهذا القياس يوجد في الشيوعية ما يتألف مع الإسلام.

### وأبرز وجوه الإلتلاف أمران:

الأول: أن الإسلام نظرية متكاملة وشاملة وتقدم تفسيرها للكون الطبيعي والوجود الإنساني، والشيوعية أيضاً تقدم نظريتها عن الطبيعة والمجتمع.

الثاني: أن الشيوعية تقيم نظريتها على أساس «الجدلية» في الطبيعة والمجتمع.. والإسلام وإن كان يعزف عن كلمة الجدلية، إلا أن هذا لا ينفي أن بعض أساسات الجدلية الماركسية تشابه السُّنن التي ذكرها القرآن للكون والطبيعة.

### والخطوط العامة للجدلية الماركسية كما تعرضها مبادئها الأربعة هي:

- (أ) أن الطبيعة شيء واحد تترايط فيه الظواهر ترابطاً دقيقاً وتتفاعل بعضها مع بعض، ولا يمكن معالجة كل ظاهرة على حدة أو مستقلة، أو منبئة عن بقية الظواهر.
- (ب) أن الطبيعة في حالة حركة وتطور دائمين.. ما بين قديم وجديد.. نهار وليل.. حياة وموت.. بدايات ونهايات.. ولا شيء ساكن أو جامد.
- (ج) أن هذا التطور ينتقل في لحظة معينة من تغييرات كمية إلى تغييرات نوعية نتيجة لتراكم أو توالي التغييرات الكمية ووصولها إلى درجة معينة.
- (د) أن هذا يعود إلى وجود تناقض أو تضاد داخل كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة والمجتمع، وهذا التضاد يؤدي إلى الصراع ما بين الأضداد ما بين سلب وإيجاب.. ماض وحاضر.

هذه هي مبادئ الجدلية الماركسية.. وكل قارئ للقرآن يلحظ إبراز القرآن لظواهر الطبيعة، والمجتمع الإنساني بما يقارب هذه الخطوط.. فالطبيعة كلها من سماوات وأرض شيء واحد «مَطَوِّياتٌ بِيَمِينِهِ»، وقد وصل الإحكام فيها إلي أنه ما من نأمة واهنة تحدث داخل هذا الكون الفسيح

اللانهاثي.. إلا وتلحظ «سواءً منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله».. «يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير».. «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور».. «وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين».. وكل الكائنات «أمم أمثالكم» تسبح بحمد الله «ويُسبِح الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ»، بل أن القرآن يشير إلى كائنات أخرى ما كان يمكن للجذلية الماركسية أن تدركها كالملائكة والجان، وإنهم جميعاً في إطار النظم والسُنن الإلهية.

وهذه الطبيعة كلها في حركة مستمرة ومنظمة ومتداخلة تمثلها ألفاظ «يجري» أو «يسبح» أو «يولج».

«وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار».. «وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى».. «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون \* والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون».. «ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير».. «وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت».

وعن حتمية التغيير والمصير «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون».. «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس».. «ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً».

ومثل هذا كثير، لأن القرآن قد فتح كتاب الكون، وأعاد الناس إلى مشاهد الطبيعة، كما لم يفعل أي كتاب سماوي آخر، وعرض هذا كله في صورة حية فذة حافلة بالحركة والتفاعل، الوجود والتلاشي، وتقابل الأضداد من موت وحياء، ليل ونهار.. إلخ.. بما يوحي وجود شبه ما بين مبادئ الجدلية الماركسية وتصوير القرآن للطبيعة وتفاعلها، وإن كانت الماركسية قد غالت في إبراز معني التضاد والصراع والتناقض، في حين أن الإسلام يبرز الطبيعة التكاملية لهذا التضاد، وأن له دوره في الحيوية والفعالية، وهو بعد هذا كله ليس إلا تطبيقاً لأمر إرادة الله، ومرده إليه.

وهناك مجال يمثل أكثر من هذا كله تقطب الصراع ما بين الهداية والغواية، فنجد هداية الأنبياء.. تجابها غواية إبليس.. والدور الذي يقوم به إبليس.. والطريقة التي صور بها القرآن هذا الدور يثير الانتباه.. فإن إبليس لم يستطع، ولم يكن ليستطع، أن يقوم بدوره الشرير إلا بإذن من الله.. والقرآن صريح في أن الله تعالى رخص لإبليس أن يقوم بهذه المهمة، وأن يستخدم فيها كل ما «بملكه».. « قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا \* قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا \* وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَفْزَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا».

إن هذا الدور الاغوائي الذي يقوم به الشيطان في مواجهة هداية الأنبياء يبرز جدلية إسلامية تناقضية وصراعية، وإن لم تأخذ قالب الدورة الثلاثية للجدلية الماركسية والمكونة من الفرض والنقيض ووليد تفاعل هذين الذي لا يلبث أن يضح فرضاً يظهر له نقيضاً وتفاعل هذا النقيض ليتولد منهما فرض جديد.. وهلم جرا.

وهكذا يتضح أن نظرة القرآن إلى الطبيعة والمجتمع بعيدة كل البعد عن أن تكون استاتيكية جامدة أو جزئية... أنها على نقيض ذلك ديناميكية

حركية متطورة تقوم على التفاعل والتضاد والتكامل، وأن الكون كله مترابط يخضع لقوانين واحدة سواء في ذلك الذرات والحشرات أو النجوم والمجرات.. وأن المجتمع الإنساني بدوره يخضع للسنن التي وضعها الله فينجو ويتكامل ويأتيه رزقه رغداً من كل مكان عندما يتبعها، ويتحلل ويتهاوى ويندثر عندما يكفر بها» فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين» ويأتي آخرون يسيرون في ديارهم ويجرى عليهم ما حري على غيرهم. كما أشار القرآن أكثر من مرة إلى الصراع ما بين الأمراء والمترفين من ناحية والأتباع والمستضعفين من ناحية الأخرى وجناية الأولين على الآخرين واختلاف الأرزاق والدرجات بين الناس ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً.

ويمكن القول أن الصور التي عرضها القرآن لهذا الجانب بلغت الغاية من الدقة والأحكام والشمول مادية أو غير مادية، وإن التصوير الفني للقرآن لا يقل إحياء عن التسجيل العلمي لهذه الظواهر..

وتكليف القرآن لجديته أكثر إحكاماً من تكليف ماركس وإتباعه جدليتهم، وهو يسد الباب على التلاعب في استخدامها أو الادعاء، بقيام أحداث معينة نتيجة لها، وعلى سبيل المثال فإن لينين وهو أستاذ الجدلية والأكبر لم يبرر السياسة الاقتصادية الجديدة إلا بمنطلق الضرورة العملية القصوى، ولكن المنظرين الذين جاءوا بعده زعموا أن هذا التبرير يمثل قصور في فهم الجدلية وأن السياسة الاقتصادية الجديدة كانت النقيض الجدلي لشيوعية الحرب (التي سبقتها مباشرة) وبهذا المنطق نفسه اعتبروا أن سياسة ستالين منذ ١٩٢٤م كانت ثمرة تقابل الفرض ونقيضه.

وبرر «الكومنترن» سياسات الأحزاب الشيوعية في مختلف دول إعلام تبريراً يقوم ل مبادئ الجدلية تهرباً من مسئولية فشلها المتكرر، كما حدث بالنسبة للحزب الشيوعي في ألمانيا عندما قرر القيام بمقومات فاشلة ضد



الحكومة. وفي الصين حيث هادن الحزب، المارشال كاي شيك الذي كاد أن يستأصل الحزب الشيوعي لولا تمرد ماوتسى تونج على سياسة موسكو.

وبقدر ما يطوع الشيوعيون الجدلية لتنتهي إلى ما يريدون أن تنتهي إليه، فإنهم لا يسرون معها إلى النهاية فإذا كانت الجدلية هي روح الحركة والتطور.. فكيف ستسير في المجتمع السوفيتي، وما هو النقيض الجدلي للنظام القائم؟ وكيف سيتفاعل معه ليولد «الفرض» الجديد.. إن الماركسيين يصمتون وكأن قوانين الجدلية قد وقفت وأدت مهمتها التاريخية بوصول الشيوعيين للسلطة.

وفي مقابل هذا يجوز لكاتب مثل كاريو هنت أن يستخلص أن الجدلية يمكن أن تستخدم لإثبات وجوه حياة بعد الموت.. فالموت بالتأكيد هو نقيض الحياة- ولما كان تألف الاثنين لا بد وأن يسفر عن صياغة على مساوي أعلى، فمن الصعب أن نرى في هذا شيئاً غير الخلود.

وبمثل هذا المنطق يمكن الادعاء أن المثالية تقف على قدم المساواة مع المادية، لأن الجدلية تفترض التناقض ووجود درجة من التكافؤ بين النقيضين ونقيض المادية هو المثالية، فقصر الجدلية على المادية هو تجاهل لمبادئ الجدلية. والقول بان المادية أشبه بالأساس والمثالية شابه بالدور العلوي تشبيه استاتيكي يخالف روح الجدلية ولا يجوز تقريره، لأن الجدلية أشبه بتيار متدفق تختلط فيه النقااض وتتفاعل وتتطور بفضل حركة وديناميكية دائبة.

وأفضل ما يقال في هذا كله أنه ليس أكثر من اجتهادات لتفسير الظواهر الاجتماعية التي لا يمكن ضبطها بمعيار علمي دقيق ومحدد. كما هو الحال فيما يعرض للعناصر والظواهر الطبيعية.

الثالث: أن الشيوعية نظرية مادية، وللإسلام - على خلاف بعض الأديان الأخرى - جانبه المادي الذي لم يغفله ويظلمه حقه «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ».

وقد يكون مما يستحق الإشارة أن المادية في الماركسية أو في أي مذهب آخر لا يمكن أن يعد نقصاً، بل أن خلوها هو النقص، فلا ريب أن المادة لها مكانتها الأثير والهام في حياة كل الناس، ولعلها أن تكون أهم من أي شيء، وأول شيء في حياة معظم الناس. ولكن هذا لا ينفي أن أثرها يتناقض بنسبة درجة الإشباع. وأنها من ناحية أخرى لا تستأثر بالأولوية لدى القلة الواعية. كما أن خلو أي مذهب من العنصر المادي قد يسمح - حتى عندما لا يكون لك مقصودا- بزيادة الفارق الذي يوجد عادة بين الأغنياء والفقراء، وتثبيط همّة الفقراء عن المطالبة بحقهم في حياة كريمة - وطمس معنى العدل في المجتمع، وهي أمور غير مطلوبة، ولا يمكن أن تقرها الأديان وبوجه خاص الإسلام الذي يقوم على العدل.. وإنما تنتقد المادية عندما يفترض أنها «الوحيدة» المؤثرة - وأن ما عداها من أفكار ومثل وقيم لا قيمة لها وهذا ما يختلف الإسلام فيه عن الشيوعية، وما سيرد الحديث عنه في فقرة خاصة..

### وجود الاختلاف ما بين الشيوعية والإسلام:

تعد وجوه الاختلاف ما بين الشيوعية والإسلام أكثر وأعمق من وجوه الائتلاف.. وأهمها:

#### (أ) رفض فكرة الألوهية والخلق.

عندما جعل ماركس المادية هي الأصل الذي تتيقن عنه جدليته فإنه استبعد الإله الخالق.. وأصبح لا يري في فكرة الألوهية سوى خرافة عريقة أثيرة إلى قلوب الناس.. وهذه الواقعة تمثل النقص الرئيسي في الشيوعية.. وهي في أصل كل انحرافاتهما، ولكن قد يكون من حق «الحقيقة كلها» أن نشير غلي الملابس التي ساعدت على وقوع هذا الخطأ.. أن اللاهوت الكنسي والبناء المعقد للتثليث وتشخيص الإله «ابن الله»، «أم الله» جعل المفكرين في المجتمع المسيحي ينفذون اليدين من التصوير الكنسي لله،

وهذه المتاهات الثيولوجية التي لا يكون الفيصل فيها للعقل أو الفطرة ن ولكن لا لاهوت الكنسي، وقنعوا بصورة عامة جداً عن الله، كما ان الكنيسة وقفت باستمرار إلى جانب النبلاء والملوك وكان الملاك والإقطاعيين وعندما قامت ثورة الفلاحين في القرن السادس عشر في ألمانيا وقف مارتن لوثر رائد الكنيسة البروتستانتية ضد الفلاحين وأوصى النبلاء بقمع الثورة بكل قسوة.. وعزز من وقوف الشيوعية من قضية الدين هذا الموقف أن الأوروبيين جميعاً - على ما ذكرنا في مكان سابق من هذا البحث لا يعرفون إلا قليلاً - إذا عرفوا - عن الإسلام وتصويره المعجز للألوهية.. فإن الحرب الصليبية قد عزلت أوروبا عنه..

على أن هذا وان كان يفسر الجانب الطارئ على القضية، أو يتعلق بين، وليس بالألوهية مطلقاً، أو يقبل إذا كان الموضوع مذهب أو كنيسة، فإنه لا يبرر الفرار من القضية كلها.. وليس من هم أكثر من الشيوعيين حديثاً عن الطبيعة وحركتها وقوانينها، ولكنهم يتجاهلون باستمرار السؤال الهام: ما هي الطبيعة.. هل هي الأجرام السماوية من شمس وأقمار ومجرات.. وهل التي وضعت قوانينها بنفسها وألزمها أن تدور بهذه الدقة، فيكون لها عقل وإرادة.. أو أن هناك من وضع لها هذا.. وإذا لم يكن لها عقل ولم يكن وراءها من يسيرها فهل الصدفة.. وكيف نقبل الصدفة في عالم الحتميات أو هل هو التطور العشوائي، وهل يمكن لهذا التطور العشوائي أن يبدع «الحياة» أو أن يصل إلى الأحكام والدقة في الذرات والنجوم ولمجرات بحيث تيسير كلها تبعاً لها من أصغر ذرة لا تبلغ إلا جزءاً من ألف جزء من المليجرام حتى أكبر المجرات التي تفصلنا عنها مئات، أو ألوف السنوات الضوئية.

أننا عندما نشهد صورة متقنة لشخص ما أو منظر طبيعي لا بد أن نستنتج أن رساماً رسمها، ولا يخطر ببالنا أن «الطبيعة» قد رسمتها وإذا رأينا «سيارة» فلا يمكن أن نتصور أن «الطبيعة» جاءت ببعض الحديد من

المناجم والكاوتشوك من الأشجار والزجاج من الرمال وأخذت تعالج هذا كله بدأب واستمرار حتى أخرجت بعد ملايين السنين سيارة ..

أن قصارى ما يمكن أن يصل إليه توالي الملايين من السنين وهو رأس مال أنصار التطور الذاتي. المادي هو تطوير كائن دنى.. إلى كائن ذكي كالإنسان. ولكنه لا يمكن أن يحل أمرين أولهما أحكام القوانين التي تمسك الأجرام السماوية وتبقى على هذا الكون والثاني سر الحياة.. وإنما أمكن لملايين السنين أن تحقق تطوراً كمياً أو نوعياً لأن الكائن حي ولأن برة التغيير كامنة فيه، ولأن الله تعالى وضع النواميس والقوانين لهذا التطور - فهي- أي توالي السنين والأعوام - عامل مساعد، وليست الأصيل.. وقد تستطيع ملايين السنين أن تغير من طبيعة بعض المواد من خشب أو معادن فتوجد لنا الفحم والبترو، ولكنها لا تملك وضع النواميس التي تتحرك بها الأجرام السماوية من شمس وأقمار، كما لا تملك أن تضيف حياة على من لا حياة فيه.

إن قضية الله هي أساساً قضية عقل- فإذا مكان هناك عقل وإرادة وغائبة فثم وجه الله - وهناك النواميس والضبط والتزام والمقدمات والنتائج، ومن هنا فإن القرآن عندما يحاج المخالفين ويدعوهم إلى الإيمان فإنه يقرعهم «أفلا تعقلون».

ومن الخطأ أن نتصور أن الشعوب في العصر الحديث في أوروبا وأمريكا وغيرهما لا تؤمن بالله، وأن المسلمين وحدهم هم الذين يؤمنون بالله.. إن هذه الشعوب تؤمن بالله بصورة قريبة جداً من الصورة الإسلامية التي هي أقرب غلي الفطرة.. ولكن لما لم تكن تلك الصورة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالدين؛ (لأن صورة الله كما تقدمها الكنيسة المسيحية ليست محل الإيمان الحقيقي لدى أغلبية هذه الشعوب، أما لأنها لا تفهمها، وأما لأنها لا تتقبلها) فإنها فقدت جزءاً كبيراً من فعاليتها وما تستتبعه من التزام أو توحى به من قيم وأن حال هذا الجزء من الإيمان دون أن تقع هذه الشعوب كلية في

الفراغ الذي لابد وأن يحدثه تجاهل فكرة الله أو اصطناع بدائل ألق بالطبع. ولا يرفض الصورة الفطرية لله في العالم الغربي إلا المتعنتون الذي غلبهم العناد على أمرهم وجعلهم يصرون على باطلهم، ممن وصفهم الله «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة، ولا يريد الكافرين إلا خساراً»، «وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم».

وفرار الماركسية من التصدي لقضية الألوهية باعتبارها الحل الوحيد المتمس بالعقلانية لمشكلة لوجود: وجود الكون بقوانينه ونظمه البالغة الغاية من الدقة، ووجود الإنسان بعواطفه ومشاعره، وما توفر له من حياة وذكاء وضمير، وتنديد الشيوعية بفكرة الله واطرحه لفكرة الخلق وعدم تقديمها البديل المقنع.. يمس عمق وموضوعية كل المفكرين الشيوعيين من ماركس فنانزلا - وتضعهم من زاوية الإسلام في معسكر الذين يشتركون الضلالة بالهدى ويؤثرون الذي هو ادني على الذي هو خير.. وتشمئز قلوبهم إذا كر الله وحده. وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ويقولون أن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

### (ب) سحق شخصية الفرد:

كما أن الجدلية الماركسية تجاهلت «الله» بالنسبة لتسيير الطبيعة ووضع نواميسها، فإنها أيضاً تناست الإنسان ودوره في المجتمع ونصيب الإرادة الإنسانية في تسيير المجتمع وسحقت شخصية الفرد داخل الطبقة، ولا يمكن أن يوصف هذا الموقف إلا بأنه ردة، أو أنه بالتعبير الدرج «رجعية» تعود بالإنسان إلى أقدم العصور قبل أن تستنقذه الأديان السماوية وتجعل له «روحاً» مقدسة، وضميراً واعيان وشخصية مميزة، وقبل أن تظهر الثورة الفكرية التي رفعت لواء الحرية وحققتها بالفعل في كثير من المجالات.

ففي هذه العصور القديمة اعتقد الإنسان أن الأمر سواء بالنسبة للكون والمجتمع إنما هو قضية الإلهية الغضاب أو قوى الطبيعة النزقة التي صورها له خياله، وإلى حد ما في يد الحاكم الذي تقمصته هذه الآلهة، فهو

وحده صاحب الأمر والنهي، وهو يملك - حرية العمل.. وحق الحياة والموت وهو ينعم على من يشاء من بطانته والمقربين إليه فيتمتعون بفضل رضاه بقدر من الحرية والرخاء، أما بقية الناس فقد كانت شخصية كل منهم مطموسة داخل طبقته أو قبيلته، أو أنه يرتبط بعقدة الولاء للأمير أو النبيل.

وعندما ظهرت المسيحية استنفذت الإنسان من هذا الوضع، وأضفت عليه مسحة من الكرامة نتيجة لصلته بالله وبلورت الضمير والروح وقدمت الكنيسة تصويرا للكون والمجتمع بدأ منطقيا ومعقولا ومتسما بالاتزان والثبات المطلوبين لاستقرار الأمور.. فالإنسان هو سيد الأرض. والأرض هي مركز الثقل في الكون، وحولها تدور الأفلاك، وهذا الكون كله يسير تعباً لإرادة الله الذي يكافئ المحسن ويعاقب المسيء ووضعت المسيحية معايير موضوعية تسرى على الجميع وتسمح لروح المساواة أن تتخلل هذا المجتمع. وعن هذا المضمون حاربت الكنيسة طوال القرون الوسطى الربا وأنواعا عديدة من البيوع الفاسدة وأوجبت التمسك بالسعر العادل، وفرضت رعاية الفقير على المجتمع، وحاولت أن تؤخر التطور المضاد، بل يمكن القول أنها أخرته بالفعل، فالثورة الصناعية التي حدثت في القرن الثامن عشر كان يمكن أن تحدث قبل قرنين عندما اكتشفت بالفعل القوى المحركة والآلات.. ولكن الحكومة حرمت استخدامها.

ولكن عددا من العوامل تدخل وغير هذا المسار نتيجة لانفراد الكنيسة بالسلطة، وما أتخمت به من ثراء فبدأت تفسد وأصبح كبار رجالاتها من بابوات وأساقفة وكرادلة في واد وشعبها وجمهورها من رهبان أو كهان أو مؤمنين في واد آخر.. وابتعدت عن القيم والمثل التي قامت عليها أول مرة وأصبحت تعمل لحماية مصالحها متعاونة مع الملوك والارستقراطيات ضد الشعوب والجماهير.

ومن ناحية أخرى، فإن المسيحية نتيجة تركيزها على الروح والخلاص ولخطيئة.. ولعدد كبير من العوامل التاريخية الخاصة بنشأتها سمحت بظهور

فكر مسيحي يرى أن المسيحية لا يجوز لها أن تتدخل في شؤون السياسة والاقتصاد وأن رسالتها الحقّة. هي تخلص الروح بالبشارة والمحبة والدعوة والقدرة، وأن الكنيسة ليس لها أن تتدخل بين الإنسان والله أو أن تكون وصية على ضميره وإرادته وكان لهذه الاتجاهات أسانيداً من العوامل التي أشرنا إليها، فضلاً عن أن قوى التطور الأخرى كانت تساندها وتدفعها من حيث لا تحتسب، أو توجهها في أحيان أخرى فظهرت الأفكار المسيحية التي تمجد العمل والدأب وتدعو إلى التقشف وترى في النجاح دليلاً على رضا الرب واستقامة الخلق. وكان هذا هو المناخ الذي سمح بظهور «الرأسمالي المتكشف» الذي يحقق نجاحه نتيجة لتراكم الربح وإعادة استثماره ولم يكن مثل هذا الرأسمالي ليستمتع بالحياة أو يتذوق الترف إلا في الفترات الأخيرة من عمره، وعادة ما يصحب ذلك بعمل مسيحي كبناء كنيسة أو ملجأ ومدرسة... إلخ... وخلال رحلة طويلة ومتشعبة سمحت هذه الأفكار بعودة الربا والتخلص من رعاية الفقير والتخلي عن الثمن العاجل واستحداث الرأسمالية للعمل، بالاختصار تهيأ الجو لظهور الرأسمالية.

وكانت الرأسمالية قد بدأت بداية متواضعة في مهد «البورو» بالصورة التي وصفناها فيما سبق من هذا البحث ويفضل روح المغامرة والمجازفة التي تملك عددًا من التجار بدأت الاكتشافات البحرية وما تلاها من استعمار وتجارة ونهب وسلب وبفضل هذا كله تحقق للتجار «تراكم» رأسمالي ضخم وتمكن الإنسان من تسخير قوى الطبيعة لتحقيق إرادته.

ولكن الرأسمالية أظهرت «الإنسان الاقتصادي» وهو تمط فريد من الكائنات أفرزه الاقتصاد السياسي للرأسمالية، فلا يتحرك إلا بوازع الربح ولا يتحدث إلا بلغة الأرقام ولا يهيمه إلا أن يكسب، وهو يدخل معركة ضارية مع العمال، ومع المستهلكين، بل ومع زملائه المنافسين.

ونتيجة لهذا أصبح الرأسماليون نوعاً من الآلهة الغضاب القدامى الذين يستبدون بالناس، فانطمست مرة أخرى شخصية الفرد في الجماعة بصور

متفاوتة، ولما لم يستطع آحاد العمال الصمود أمام الاستغلال الرأسمالي بدأوا في تأليف النقابات أو انضموا إلى الأحزاب

كان هذا هو الوضع عندما ظهر ماركس، ولعله أراد أن يصلح هذا الوضع الأعور، ولكنه خلال معالجته أصاب العين السلمية، فأصبح أعمى! وفي الوقت الذي أراد أن يحرر الإنسان من الاستغلال، فإنه هوى به أسفل سافلين أو انه على حد تعبير «بيتر دركر» لم يكتف بأن يثبت أن الإنسان ليس حرًا في ظل الرأسمالية، بل أنه ليس لديه أصلا الملكة ليكون «حرًا».

ذلك أن ماركس عندما أخذ من «المادة» وليس الإنسان نقطة البدء، لم ير في الإنسان سوى كيانه المادي باعتباره حيوانا، ودفعته أبحاث النشوء والتطور التي ظهرت وقتئذ، وتأثر بها عميقا لان يري في الإنسان سليلا للقردة العليا استطاع بفضل الظروف والملابسات وخلال مرحلة طويلة من التكور- أن يقف على قدميه، وأن يطور من يده - وبالذات الإبهام- بحيث اكتسب القدرة على الإمساك بالأشياء - وأصبح عبر ملايين السنين الإنسان المعروف.

وهذا المنطلق يختلف اختلافاً جذرياً عن منطلق الأديان، والفلسفات الإنسانية، فالأديان على اختلافها أضف على الإنسان كرامة مقتبسة من ذات الله، ومن فكرة خلق الله له، فهو في الإسلام خليفة الله في الأرض الذي سجدت له الملائكة ويحمل أثار تلك النفثة الإلهية التي وهبت آدم الكرامة، وهو في المسيحية على صورة الإله الذي أرسل «ابنه» ليفديه. واعتبرت الكتب المقدسة أن من قتل نفسا «فكأنما قتل الناس جميعاً» وليس هناك ما هو أكثر من تلك الإشارات والرموز دلالة على تكريم الإنسان..

وهو في الفلسفات الإنسانية التي أظهرتها الثورة الليبرالية للفكر الإنساني«» غاية في ذاته«» وبفضل هذه المعاني التي اصطحبت بالأديان حيناً والفلسفات الإنسانية حيناً آخر أصبح للإنسان قداسة خاصة وحقوقاً طبيعية- أي بحكم كونه إنساناً ولمجرد كونه إنساناً.



ومثل هذه الحقوق، وأنها طبيعية (أي لمجرد كون الإنسان إنساناً) غريبة على الشيوعية التي لا ترى في الإنسان سوى حيواناً متطوراً وأنه إذا يستحق مزايا معينة، إنما مرد ذلك للعوامل التي أدت إلى تطويره، فهذه العوامل وحدها وليس الإنسان وإرادته هي مركز الثقل، وهي التي تمضي دون نظر إلى طبيعة الإنسان وإرادته. وهذه العوامل لا تقتصر على العوامل الطبيعية، ولكن أيضاً على العوامل الإنتاجية التي تتطور وتنشئ علاقات مستقلة تماماً عن إرادة الإنسان طبقاً لتلك الفقرة المشهورة من كلام ماركس «خلال الإنتاج الاجتماعي للناس، يدخل الناس في علاقات محددة لا غنى عنها ومستقلة عن إرادتهم، علاقات إنتاجية تتطابق مع درجة محددة من تطور قوى الإنتاج المادية» فتطور قوى الإنتاج وعلاقاته تفرض نفسها فرضاً على الإرادة الإنسانية التي لا تستطيع شيئاً إزاءها .

وفي ضوء هذه الفكرة يمكن أن نفهم الجمود الذي تملك ماركس إزاء العمل والرأسماليين معاً. فمع تعاطفه مع الأولين، ونقمة على الآخرين، إلا أنه كان يرى أن هؤلاء وأولئك ليسوا المتسببين في البأساء وأن الرأسماليين لا يستطيعون إلا أن يمضوا إلى النهاية - نهايتهم نفسها - وأن العمال، ما لم يربطوا ما بين كفاحهم وتغيير علاقات وملكية الإنتاج، فلن يستطيعوا شيئاً، كما نفهم الاستهانة بالحقوق الإنسانية التي تصطب بالتطبيق الشيوعي بدءاً من لينين حتى الآن، وعلى اختلاف صور التطبيق في مختلف دول العالم، كما يمكن أن نفهم ظهور فكرة «تكيف» الطبيعة البشرية ومحاولة الهيمنة على مكونات شخصية الفرد والعبث بها وهي ممارسة بدأت من أيام لينين مع تجارب «بافلوف» على الكلاب.. وتمخضت عن عمليات «غسيل المخ» أيام ستالين..

وفي ضوء هذه الفكرة أيضاً يمكن أن نفهم النظرية الشيوعية عن الحرية التي طالما هلل لها الماركسيون، وكان حرياً بهم أن يستحوا منها وتتلخص في أن الحرية هي العلم بالضرورة!

وقد شرح بليخانوف في كتابه عن الفرد والتاريخ هذا الاكتشاف الذي اعتبره مع المع الاكتشافات الفلسفية بأنه «ما أن يبدو الوعي يفضل الحرية في صورة استحالة العمل غير الذي يؤديه الإنسان بالفعل وعندما يكون هذا العمل أكثر أعمال الممكنة أفضلية، فإن الضرورة تتشخص في ذهن الإنسان بالحرية، والحرية بالضرورة»، وعندئذ «لا أكون حر إلا بمعنى أنني لا أستطيع أن افسد هذه الوحدة ما بين الحرية والضرورة واني أستطيع أن أعارض الواحدة بالأخرى وأني لا أخضع لضغط الضرورة، ولكن مثل هذه النقص في الحرية هو في الوقت نفسه أكبر عرض لها».

وهكذا فإن الاكتشاف العظيم يتمخض عن أن الحرية هي عدم الحرية!  
وان العجز عن العمل خلاف ما اعمل بالفعل هو نفسه أكبر عرض للحرية  
!!

وبناء على هذه النظرية فإن ستالين ادعى أن الدستور الذي وضعه سنة ١٩٣٦ هو أكثر الدساتير ديمقراطية، كما يدعى الشيوعيون في كل دولة يهيمنون عليها أن نظامهم- وليس النظم الديمقراطية الرأسمالية - هو الذي يتضمن أعظم قدر من الحرية!! .

ومن الواضح بالطبع أن نظرية العلم بالضرورة كتعريف للحرية هي معالجة سيئة وغير موصلة، أن لم تكن محض تحايل، صحيح أن الضرورة تكون في كثير من الحالات قيودا على الحرية أو إطارا مفروضة عليها، ولكننا لا نعرف الأشياء بالقيود عليها أو الأضداد لها، فلا نقول أن الأبيض هو الأسود. . حتى وإن كان من المسلم به أن وجود الأسود يبرز من صورة الأبيض، ولا يمكن أن نقول عن الحرية «مكره أخاك لا بطل»، وتعريف الحرية بأنها العلم بالضرورة خلط وتمييع وتحايل لأن كلمة الضرورة تقبل التأويل، وهي عملية لا ضابط لها، وكل يوم يشهد تفوقا للإنسان على الضرورة، فما كان ضرورة بالأمس أصبح في قبضة اليد اليوم.. والمفروض أن يذكر مثل هذا التعريف عندما يكون الحديث بصدد العلاقة بين الإنسان

والطبيعية، ولكن الزج به في مجال العلاقات الاجتماعية يحل أبرز الظواهر الاجتماعية «الدولة» محل الظواهر الطبيعية وهذا هو في الحقيقة مبرر الزج بهذا التعريف، ولا يختلف الأمر إذا قيل أن المقصود هو علاقات الإنتاج وملكية وسائل الإنتاج، لأن هذه تكون في يد الدولة، وفي جميع الحالات فإن الحرية من هذه المنطلقات كلها لا يكون لها معنى سوى الإذعان والانقياد.. وتبرير هيمنة الحكومة الشمولية.

ومقارنة هذا التعريف الشيوعي، بأقرب الصور إليه إلا وهو التصوير الإسلامي للقضاء والقدر<sup>(١)</sup> الذي تصوره «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا» أو «الخيرة فيما اختاره الله» أو «لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع»، يوضح لنا أن التعريف الشيوعي صورة مشوهة للتصور الإسلامي؛ لأن المناط في التصور الإسلامي هو في يد الإله العادل القادر الرحمن الرحيم الذي هو رمز الكمال ولا يملك أحد احتكار الحكم. باسمه في حين أن «الضرورة» في الشيوعية هي في يد الدولة وماجوريها وزبانيته، وقد وجد من المفكرين الإسلاميين من يرى أن الإنسان مخير لا مسير، بل ويلزم الله تعالى العدل.. وهو شيء لا يمكن أن يحلم به مفكر سوفيتي بالنسبة للدولة أو الحزب.

ولكي تكون الصورة كاملة يجب أن نشير إلى أن «الحرية» كانت دائماً مثلاً أعلى أوروبياً، لأن الحضارة الأوروبية إنسانية، ووثنية يقف فيها الإنسان في مواجهة القدر والقوى التي مثلتها الميثولوجيا اليونانية ويستهدف التحرر منها ولم تتأصل في أوروبا الأديان السماوية ومثلها العليا التي تضع الأمور في نصابها، فجعل الحرية مثلاً أعلى والحرص عليها أمر مفهوم بالنسبة للحضارة الأوروبية ومطلوب، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للإسلام، إذ مما

---

(١) أشار بيليخانوف إلى تقارب فكرته مع فكرة القضاء والقدر الإسلامية، ولعلها الإشارة الوحيدة التي تنم عن معرفة بالفكر الإسلامي، حتى وإن كانت معرفة مغلوطة، واستشهاد في غير محله.

يلفت النظر أن القرآن لم يتحدث عن الحرية، وليس معنى هذا لا يقر الحرية ولكن معناه أنه يعالجها بطريقة خاصة، فهو يحرم الظلم ويجعله صنوا للشرك والكفر ومن الناحية الإيجابية فإن القرآن يجعل العدل هو الفيصل في تحديد العلاقات، وبذلك حل مشكلة الحرية سلبيًا وإيجابيًا. ولم يتوفر مثل هذا الحل لأوروبا، وبالتالي أصبحت الحرية مطلبًا لا مناص عنه، وفي ضوء هذه الحقيقة يكون تقدير نظرة الشيوعية إلى الحرية باعتبارها العلم بالضرورة وجعلها الإذعان للضرورات؛ وأولها بالطبع سياسة الدولة وقرارات الحزب .

### (ج) الاقتصاد على العامل المادي:

قد لا يعد التركيز على الناحية المادية في الماركسية شيئًا شاذًا إذا لاحظنا الوقت والمناخ الذي ظهرت فيه، وكان هو نفسه السبب في ظهورها، أعني بذلك تفاقم الاستغلال الرأسمالي وفرض الفاقة والتشرد على جماهير العمال، ولكن التصدي لمثل هذا العامل نفسه لا يمكن أن يقوم على أساس مادي فحسب، قدر ما يقوم على أساس أدبي هو العدالة والإنصاف والتكافل الاجتماعي والثورة على الظلم والاستغلال، ومسئولية المجتمع نحو أفراد، وهي كلها قضايا لا تجد مبررها في صميم الاقتصاد أو المعالجة المادية. ومن هنا فلا يمكن التماس العذر للشيوعية في اقتصادها على العامل المادي.

ومن يلحظ إشارات القرآن إلى الشمس والقمر والليل والنهار، وإشاراته إلى الناس والبشر يجد أنها تختلف، فالقرآن يشير إلى الأولى بلغة الجبرية والدقة ويجعل من اختلالها نهاية العالم بينما يشير إلى الناس والبشر بلغة أخرى. لغة الأهواء والشهوات الهدى والضلال.. الخير والشر العسرى واليسرى ثم يكمل الحكم في ذلك كله إلى الله.. لأن المعايير البشرية تعجز عن الفصل في كافة أقطار النفس البشرية..

وفي المجتمع الإنساني يتمثل العامل المادي في الاقتصاد وعلاقات الإنتاج وإشباع الحاجات المادية للإنسان، ولا جدال في أهمية هذا العامل وضرورته ولكنه مع ذلك ليس العامل الوحيد الذي يملأ النفس البشرية، انه

يملاً المعدة، ويمكن أيضاً أن يؤثر على الفكر، ولكن هناك مناطق من الفكر لا يمكن أن يؤثر عليها إلا المبدأ الذي لا علاقة له بالمادة، بل قد يغلب أن يكون على حساب المادة، لأنه يكلف أصحابه التضحية بأنفسهم فيضحون بها ويحملون الشظف والسجن والعذاب في سبيله.. وقد كان ماركس نفسه دليلاً على ذلك، فقد تحمل الجوع والشظف في سبيل الفكرة التي أمن بها، وكانت ضد اتجاهات القوى المهيمنة. .

وقد وقعت الشيوعية في لبس جسيم عندما أرادت. . في محاولتها تقديم تفسير واحد للكون وللمجتمع الإنساني تطبيق قوانين جبرية مادية واحدة. أن القوانين التي تحكم الشمس والقمر والعناصر يمكن أن تكون قوانين علمية رياضية ثابتة. فعند درجة معينة من الحرارة أو البرودة يتحول الماء إلى بخار.. أو يتجمد إلى جليد. ويتمدد أو يتقلص المعدن.

والأرض والشمس والقمر والنجوم كلها تسير بنظام واحد، وبسرعة لا يمكن أن تختل لو بجزء من الثانية، ولو حدث هذا لانمحت الحياة الإنسانية كلها من الوجود. . ولتطأيرت الأرض نفسها شعاعاً.

ولكن محاولة تطبيق هذه القوانين نفسها على المجتمع الإنساني ليست إلا حماقة كبرى، فالفرد الإنساني كائن معقد شديد التعقيد يحمل وراثات ألوف من الآباء والأجداد بحيث لا يكون أي فرد مثل الآخر تماماً. وكل فرد ينشأ في بيئة معينة وظروف معينة وتاريخ معين بحيث تزداد الفروق البيولوجية.. فكل فرد إنساني يكاد يكون «عالمًا» بأسره.. وهذه الفروق والاختلافات تكتنف كل صغيرة وكبيرة في كل فرد وتتدخل بحيث تحول دون مضي الحسابات الدقيقة للقوانين الرياضية.

وهذه النقطة توضح حقيقة هامة في تاريخ تطور المجتمعات البشرية وتكوينها، فمع أن العامل المادي وإشباع الحاجات المادية للإنسان من مأكّل ومشرب ومسكن.. الخ.. لها الأولوية لدى الجماعات والجماهير والأغلبية الساحقة من الناس، إلا أنها تفقد هذه الأولوية لدى عدد من الناس قد يكون

قليلاً، ولكنه يمثل العنصر المؤثر، فلدي هؤلاء تكون للفكرة، والعقيدة، والمذهب الأولوية وهذه القلة تضم معظم الفلاسفة والأنبياء والعلماء والشعراء والكتاب والفنانين العظام.. أي العناصر المؤثرة في المجتمع، والتي تقود حركته تحت لواء العقائد والأفكار.. وبقيادة هذه القلة وتحت لواء أفكارها تحركت الجماهير ونظمت مسيرتها.. وليس شرطاً أن تكون الأفكار والعقائد صحيحة أو سليمة، فقد تكون خاطئة أو بدائية، ولكنها في جميع الحالات بعيدة عن معيار المادة وميزانية الكسب والخسارة.

أن هذه التفرقة بين العامل المادي وأثره عن الأقلية النابذة، يضع الأمور في نصابها ويعطي كل ذي حق حقه ويجمع بين أهمية العامل المادي وأهمية العقائد والأفكار دون تناقض أو تعارض، فتحت لواء الأفكار قطعت البشرية مسيرتها نحو التقدم. وفي الوقت نفسه فإن القوى التي تمثلها علاقات الإنتاج والحاجات المادية للجماهير تضغط على هذه المسيرة وتؤثر عليها، وتجعل طريق التقدم يسير نحو تحقيق الرخاء للجماهير وإشباع احتياجاتها المادية.. وهذا هو التكيف العادل والشامل للحقيقة، وليس التكيف المذهبي الضيق الذي يحيف على ناحية - إن لم يكن يكفلها تماماً - لحساب ناحية أخرى.

وقد اضطر انجلز في خطابه إلى شميدث (٥ أغسطس ١٨٩٠م) لأن يعترف انه هو ومارس يستحقون اللوم لما ذهب إليه اتباعهما من الشطط أو الظن أن العامل المادي وحده هو المؤثر، واعتذر بضيق الوقت، والملابسات والمناخ الذي كان سائداً وقتئذ<sup>(١)</sup>، ولكنه اعتذار هزيل لا يقوى على مس الصرح الذي أقاماه بالفعل وأصبح قبلة الإتياع والمتهوسين.

---

(١) انظر نص هذا الخطاب في:

Marx-engels, Selected works volume 2 p. 486.

Foreign languages publishing house, Moscow 1995.

وبعد هذا، فإن العامل المادي حتى وإن احتل الأولوية لدى الجماهير وخاصة الناس، إلا أنه يعجز عن الاحتفاظ بهذه الأولوية، أن أثره يقل تدريجياً بقدر التوصل إلى درجة الإشباع، فهو يقضي بنفسه على نفسه ويضع بنفسه النقطة التي يبدأ فيها - التناقض - ولعل هذا هو السبب في نجاح الشيوعية في الدول الفقيرة فعندما تلوح الشيوعية برغيفها المقدس فإن الجوع في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يجرون وراءها.. ولكن رغيفها المقدس لا يحرك ساكناً لدى الشعوب الغنية.. لأنها تزهد فيه، ولا بد لإثارة شهيتها من تقديم ما هو أفضل.. فإذا كانت قد بلغت هذا أيضاً فإن الشيوعية لن تجد ما تقدمه.

قد يقال أن الشيوعية عندما تدعو إلى الرغبة وتتيح للجوع فإنها تحقق شيئاً عظيماً. والدعوة بهذه الصورة ليست محل خلاف ونحن أول من يدعو إليها. وإنما الخلاف هو في أن هذا الرغبة - هو كل شيء.. والخلاف أيضاً أن هذا الرغبة - باعتباره ممثل للحاجات المادية لا يحقق تماماً في كثير من الدول الشيوعية.. وإن الحكومة مع هذا تقتضي ثمناً ربوياً فاحشاً للكسرة التي تقدمها منه.. وإن الجماهير في كثير من الحالات لم تنل الرغبة - وفقدت - في الوقت نفسه - الحرية.

وليس في الاقتصار على العامل المادي، أو التقليل من العامل الفكرة والمعنوي ما يحمل الإنسان على الزهو!.. فالحيوانات لا تعرف إلا العامل المادي والميزة العظمى للإنسان هي إدراكه للقيم والمثل، وفكرة السمو التي تلهمه وتجعله يتمتع بحياة إنسانية بمعنى الكلمة.

أم أهمية العامل المادي ليست محل نكران، وفكرة أن الناس يجب أن يأكلوا ويشربوا قبل أن يفكروا وينفلسوا فكرة مقبولة «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»، فالأمن من الجوع جاء أولاً وسبباً للعبادة. ولكن هذه «الأولوية» لا تمثل القصة كلها والاقتصاد عليها هو ابتسار للطبيعة البشرية، واقتضاب للقوى التي تطور وتدفع

المجتمع وتجعله يتميز عن أي مجتمع آخر غير إنساني.. والتبسيط الذي يجعل العوامل المتعددة عاملاً واحداً.. ويعامل الناس على اختلاف نوعياتهم معاملة واحدة يخل بالصورة.. كما أن محاولة «قياس» أثر كل عامل من العوامل الأخرى.. ومدى سبقه أو تأخره.. ووضع حكم واحد عام ومطلق.. لا بد وأن يكون بعيداً عن الدقة والصواب ولا يمت إلى «العلمية» المزعومة بصلة.. لأن أدوات القياس غير متأنية ولأن الظروف زمنية ومكانية متفاوتة، ومن ثم فلا يمكن الادعاء بأن العامل المادي أهم، أو أسبق من العوامل الأخرى في تطوير المجتمع - كما تذهب إلى ذلك الشيوعية.



## [٣]

### النظام الاقتصادي

الرأسمالية والشيوعية مذهبان اقتصاديان أساساً وقد كان المنطلق الرئيسي لكل منهما هو المنطلق الاقتصادي، وان لم ينف هذا أنهما في مرحلة لاحقة زحفتا على المجال السياسي.. فكانت الرأسمالية «الديمقراطية الليبرالية» وكونت الشيوعية النظم الاشتراكية والشيوعية و«الديمقراطية الشعبية»..

وفي هذه النقطة يختلف الإسلام.. فقد أنزل الله تعالى الإسلام هدى للناس في كافة مجالات حياتهم اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية.. ومن هنا فإنه يعطي الاقتصاد دوراً يتفق مع حجمه ويضبطه بمختلف الضوابط التي تقتضيها سياساته في المجالات السياسية والاجتماعية وغيرها.. أما الشيوعية والرأسمالية فإنهما - بحكم منطلقهما وطبيعتهما - يصبغان الحياة بالصبغة الاقتصادية ويسخران المجتمع لخدمة الاقتصاد، وليس العكس .

وقد كان منطلق الاقتصاد الرأسمالي أن يصبح سلعيًا.. وليس طبيعيًا.. بمعنى أن لا تنتظر الرأسمالية لتقوم بإنتاج ما يريده الناس بالفعل، والقدرة المطلوب (كما كان الحال قبل الرأسمالية)، ولكن أن تنتج السلع تبعاً لنوع وطريقة الاستثمار الأكثر ربحية ثم يساق المجتمع لتقبلها واستهلاكها بمختلف الوسائل كالإعلان، التفسير وعرض السلع على البيوت وغيرها من وسائل «تخطيم مقاومة المستهلك» والتأثير عليه.. إلخ.. وفي كثير من الحالات تتجح الرأسمالية بحيث يقبل الناس على هذه السلع دون أن تكون هناك حاجة حقيقة لها.. وقد تفشل الرأسمالية فيحدث الكساد والأزمة والبطالة.

وصحيح أن هذه الصورة تتغير في الشيوعية.. ولكن مادام منطلق الشيوعية هو المنطلق المادي.. فإنها ستصبغ الحياة بصبغتها وسيصبح مثلها الأعلى هو المثل الأعلى الرأسمالي نفسه - الاستهلاك - والرفاهية، ولكن

بعد اتخاذ الضوابط التي تحول دون وجود عناصر الفوضى والضياع في طريقة الإنتاج الرأسمالية.. وتجهم الشيوعية للمجتمع الاستهلاكي متأت من تخلف المجتمع الشيوعي عن المجتمع الرأسمالي فهو كالصبي الذي ينكر على الشاب انسياقه وراء الشهوات - فإذا بلغ الحلم.. أنساق وراءها.. فالمجتمع الشيوعي لأنه متخلف إنتاجياً واقتصادياً لا يمكن أن يبلغ درجة المجتمع الاستهلاكي إلا بعد أن يمر بمرحلة من البناء.. وهذا هو ما يعمل له المجتمع الشيوعي جاهداً، وما يسخر في سبيله حياة الأجيال. والإنتاج بداهة للاستهلاك وعندما يبلغ المجتمع الشيوعي المرحلة الإنتاجية التي بلغها المجتمع الرأسمالي المتقدم فسيتحول هو الآخر إلى مجتمع استهلاكي، لأنه ليس هناك سبيل آخر لتصريف الإنتاج، ولأن المثل الأعلى الشيوعي مادي، هذا إذا اقرضنا أن الحكومات الشيوعية أمينة على مبادئها وصادقة في خدمة شعوبها.. وإلا فإنها تستطيع أن تبقى على مستوى الشظف وتحتفظ بعوائد الإنتاج العالية لتحقيق أغراض سياسية، فتتنفق على جيش من الجواسيس بدلا من أن تنفق على جيش من المعلمين.. وتصطنع العملاء والصحف في الخارج.

ففي المجتمع الرأسمالي والشيوعي تسخر الحياة للاقتصاد وتسيطر قوانين الاقتصاد على المجتمع. وهذا واضح «بالعين المجردة» في المجتمع الرأسمالي، كما يصبح واضحاً في المجتمع الشيوعي بما قدمنا من تحليل ولأن الفلسفة الشيوعية كلها مادية. . حتى في الطبيعة، وليس في المجتمع وحده.

## عناصر نجاح الاقتصاد الإسلامي

ومع أن الإسلام يختلف عن الأديان الأخرى في انه يعترف بالجانب المادي في الحياة ويوفيه حقه، إلا أن علينا أن نعترف أن الأديان جميعاً - وليس الإسلام وحده - ترفض الكليية والأثرة والأنانية وكافة صور الظلم والاستغلال وأن يوجد الأغنياء متخمون جنباً إلى جنب فقراء جائعين.. وقد قامت المسيحية بدور كبير لصد جائحة المادية التي اكتسحت المجتمع الأوروبي.. وطوال القرون الوسطي فرضت الكنيسة على التجار شرعة «الثلث العادل» وحرمت الربا وعدداً من البيوع الفاسدة التي يحكمها الإسلام أيضاً.. وأوجبت على المجتمع أن يتكفل بفقرائه وقررت زيادة الأجور تبعاً لزيادة أسعار الخبز وعدد أفراد الأسرة.. وهذه المواقف كلها توضح أن القيم والمثل والمبادئ الدينية ليست من إبداع المجتمع.. ولا هي «دور علوي» يقوم على أساس مادي كما ذهب إلى ذلك ماركس.. ويثبت أن المسيحية صارت مد التجار الزاحف وأموالهم وأعمالهم فترة طويلة.. وحتى في الحقبة المعاصرة. فقد أصدر بعض البابوات مراسيم تكبح جماح الرأسمالية ووقف الكاردينال ماننج بجانب عمال الشحن بميناء لندن خلال إضرابهم عام ١٨٩٩م، كما وقف لورد تمبل كبير أساقفة كنتربري جنباً إلى جنب عمال بريطانيا خلال الإضراب العام سنة ١٩٢٦م.. وظهر مفكرون حاولوا تطعيم الفكر الاقتصادي بالمثل المسيحية، وإيجاد «الاشتراكية مسيحية».

لكن هذه الجهود باءت بالفشل وفشل الكتاب المسيحيون الذين حاولوا تطعيم المجتمع الحديث بالقيم المسيحية مثل شستريون الذي كانت الحصيلة المرأة لكفاحه هو به «عودة دون كيشوت» الذي يعد إقراره بفضلته في إعادة

المسيحية إلى الحياة العامة واقتصار أثرها على المشاعر الفردية التي تعزل صاحبها عن الحياة الواقعية وتجعله يعيش في عالم من إبداعه الخاص<sup>(١)</sup>.

ومثل الكاهن الألماني نيمولر الذي قاوم النازية ولكن دون أن يجد في المسيحية «نظاماً» يجابه به النظام النازي.

فضلاً عن فشل محاولات «الاشتراكية المسيحية» والنقابية المسيحية التي تجلت في تغيير الاتحاد العالمي للنقابات المسيحية الذي تكون سنة ١٩٢٠م اسمه إلى الاتحاد الدولي للعمل.

إن فشل المسيحية تجاه المد المادي الطامي للحياة الحديثة، وحقيقة أن «المادية» قسمة مشتركة ما بين المذهبين السائدين في العالم - أي الرأسمالية والشيوعية - يجعل بعض الناس يشكون في أماكن قيام - فضلاً - من نجاح اقتصاد إسلامي، خاصة إذا أضفنا إلى العاملين السابقين وهن الشخصية الإسلامية وهيمنة «النموذج العصري» الأصولي للمسيحية.

ولكن الحقيقة أن الإسلام قد رزق عوامل معينة تكفل النجاح للاقتصاد الإسلامي.. إذا ظهر المؤمنون به.. والعاملون عليه.. وهي عوامل تفتقدها المسيحية، والشيوعية، والرأسمالية.

من هذه العوامل:

(أ) أن الخطوط العريضة للاقتصاد الإسلامي اعتبرت من اليوم الأول للإسلام جزءاً لا يتجزأ منه، بحيث لا يستطيع المسلمون التملص منها أو التضحية بها تحت راية «ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، كما فعلت المسيحية، وهو موقف اتخذته المسيحية إما لعجزها عن المجابهة، أو إيماناً من دعائها بأن هذا هو الموقف الأصولي للمسيحية.

---

The end of economic man by Peter. F. Drunker p. 96.

(١)

(ب) أن هذه الخطوط العامة محددة تحديداً دقيقاً وبالاسم. فالزكاة واجبة.. والربا والاكنتاز محرم.. والتكافل الاجتماعي مطلوب والملكية خاضعة لحسن الاستخدام وليست مطلقة.. وبهذا لا يكون هناك مجال للتردد.

(ج) أن الإسلام لم يحم «كنيسة» تعمل باسمه وتتولى وحدها المواقف، وبذلك نجا الإسلام من أن يقف كما وقفت الكنيسة - في بعض الحالات - ضد الجماهير والشعوب والعمال.. وعسر على الحكومات التحكم في الموقف الإسلامي ما دام هذا الموقف في يد كل العلماء المسلمين - وان استطاعت بالطبع أن تصطنع بعض هؤلاء العلماء.

(د) أن الإسلام بعد أن حدد الخطوط العريضة للاقتصاد سلبيًا وإيجابيًا تحريمًا وتحليلًا، وداخل هذا الإطار العريض من الضوابط، فإنه أقر وازع الربح، وحرية النشاط الاقتصادي.

(هـ) أن الإسلام - كما لا ننسى - دين وهو يظفر من المسلمين بالإيمان القلبي العميق ولا يعد «وازع السلطان» إلا جزءاً من مصادر قوته وهذا مالا يتأتى للشبيوعية أو الرأسمالية. وإن تأتي للمسيحية..

وهكذا يتضح أن «الاقتصاد الإسلامي» قد رزق من عناصر النجاح ما لم ترزقه الشبيوعية أو الرأسمالية أو المسيحية وكان سبباً في فشلها.. فقد كان سهلاً على المسيحية أن تتخلى عن دورها في الإصلاح الاقتصادي المباشر على أساس أن الهداية الفردية هي رسالتها الحقة، أما الرأسمالية فإنها أثرت أن تقف مع الحرية على خط مستقيم ولا تحرم شيئاً.. والنجاح هو مقياس الخطأ والصواب «وميكانزم» السوق هو قاضيها.. وليس من مهمتها تحقيق العدالة أو مقاومة الاستغلال وشعارها الحقيقي الذي يتلاءم مع طبيعتها «كل لنفسه.. وليأخذ الشيطان الأخير»، أما الشبيوعية فإنها تغلق الباب بعنف أمام

الحرية، ولا نجد فيها إلا التخطيط المركزي الذي تقف على أحد جانبيه السلطة السياسية ومقتضياتها وعلى الجانب الآخر البيروقراطية وتعليقاتهم.

### وظيفة الاقتصاد الإسلامي :

لما كان الهدف الرئيسي للإسلام هو هداية البشرية - ولما كان الاقتصاد جانباً من جوانب الإسلام. فإن ثمرة هاتين الحقيقتين هي أن يكون للاقتصاد دوره في تحقيق هذه الهداية، أو بمعنى آخر أن يكون الاقتصاد الإسلامي اقتصاداً وظيفياً يستهدف تحقيق وظيفة معينة يكون عليه القيام بها، وليس نشاطاً عشوائياً ارتجالياً تتحكم فيه الأهواء وتفسيره الرغبات والشهوات ولا يستهدف إلا الربح.. ووظيفة الاقتصاد الإسلامي هي إنتاج الطيبات من الرزق وتحقيق مستوى معيشة كريم يشبع الحاجات ويكفل للناس قدرًا معقولاً من الاستمتاع.. لأن الإسلام لا يستنكف من الاعتراف بحق الناس في الاستمتاع بحظهم المشروع في الحياة الدنيا.. وإن الله تعالى سخر لهم موارد ومصادر المواد لتحقيق ذلك.

وظيفة الاقتصاد الإسلامي تجعله يتميز عن الاقتصاد الرأسمالي الطليق الذي يرفض الالتزام باتجاه معين، ويرى أن التدخل فيه يفسد آلياته ويعرقل عمله - كما أن وظيفة الاقتصاد الإسلامي تختلف عن وظيفة الاقتصاد في الشيوعية، لأنها لا تقتضي أن تقوم الدولة «بتأميم» المنشآت وبتولي إدارتها.. إن هذا خارج إطار الممارسة الإسلامية المقررة تماماً.. ولم يحدث أن فكرت الدولة الإسلامية من عهد النبي والخلفاء الراشدين.. في ذلك.. ووظيفة الاقتصاد الإسلامي تتجلى في الضوابط التي تحكمه، وليس في الممارسة أو الملكية.. وقيام الدولة بممارسة النشاط الاقتصادي (كما هو الحال في الشيوعية) يخالف الأساسيات والأصول الإسلامية ويعطي الدولة ما ليس لها. وما هي غير مؤهلة له.. ويحرم الأفراد حقهم وما هم مؤهلين له.. وتكون النتيجة طغيان الحكومة وعقم الأفراد والإسلام يعطي كل ذي حق

حقه ويشيع السلطة بما يجعل كل واحد يقدم عطاءه.. على أن يتم هذا كله داخل الضوابط التي يضعها الإسلام للأفراد والحكومات على سواء.

وقد يقال أن من واجب الحكومة أن تقوم بأنماط من النشاط الاقتصادي لحماية المستهلك ككسر احتكار التجار أو الملاك ومقاومة استغلالهم، أو القيام بالصناعات التي لا تحقق ربحية تعري أصحاب الأعمال بالقيام بها. ونحن لا نرفض هذا على سبيل الاستثناء، لا القاعدة، لأننا نعتقد أنه لو طبقت الشريعة الإسلامية بحذافيرها، أي بما تلهمه من ضمير وما توجيه من عدل وما توقعه من عقوبة لما جرؤ التجار على استمرار الاستغلال والمضي فيه قدما حتى يلجئون للحكومة إلى أن تنزل بنفسها إلى مجال الممارسة، وهي غير مؤهلة له.. وبالنسبة للصناعات التي لا تحقق ربحية مغرية، فإن قيام الحكومة بصور من الدعم أو التشجيع أو حتى المشاركة أفضل من قيامها بنفسها بهذه الصناعات.

والجمع ما بين الصفة الوظيفية للاقتصاد وحق الممارسة ووازع الربح للأفراد يحقق «توليفة» فريدة، فالمسلم النمطي عندما يمارس نشاطاً اقتصادياً، فيفترض انه يعمل لإشباع الاحتياجات المشروعة لإخوانه - وبالتالي يسهم في بناء المجتمع - وفي الوقت نفسه، فإنه يحقق لنفسه قدراً معقولاً من الربح يكفل له الحياة الكريمة.

ومع أن نطاق نشاطه الاقتصادي وحجم أرباحه عندما يلتزم بهذه الضوابط (أي الإشباع الاحتياجات المشروعة والاقتصاد على الربح المعقول) قد يكون أقل مما لو تحرر منها وعمل بالشعار الرأسمالي «أشتر بأرخص الأسعار.. وبع بأغلاها) إلا أنه سيكون أكثر سعادة لإحساسه بأنه لا يعمل طلباً للربح وحده أو يضعف أمام إغرائه.. لكنه أيضاً يسهم في رسالة اجتماعية سامية.

وفي الوقت نفسه، فإننا لو حرمانه من الربح، وأعطيناه مرتبا لفقد تلك الومضة الذاتية الدفينة في النفس والتي لا تتقدح إلا في الهواء الطلق والإرادة الحرة والتي تعد تعبيراً عن الذات، وبالتالي أقوى وأصل النوازع

صحيح أننا عندما نسمح لهذه الومضة بأن تتقدح، فإن احتمال أن تستبد بالنفس، أو تطغى على غيرها.. لا يكون مستبعداً، ولكننا من ناحية أخرى لو أطفأناها لحرماناً دفعها، ويغلب أن لا يكفي الإحساس الاجتماعي أو الإيمان الديني لدى أغلبية الناس، لتوفير الحماسة واليقظة اللازمين لأداء العمل بالمستوى المنشود من الخدمة والدقة.. ولحرمان العامل من ابتسامته، وبشاشته.. وحماسته.. وهو أمر ملحوظ ويعد من أبرز التفرقات ما بين العاملين في القطاع الخاص والقطاع العام.

وفي الملكية - كما في الممارسة - تجمع وظيفته الاقتصاد الإسلامي ما بين الحق.. والواجب.. فالملكية حق عندما تأخذ شكل ملكية الاستخدام الشخصي من بيت، أو عربة أو أثاث أو ملابس.. الخ.. على أن لا يشذ ذلك عن مألوف العرف أو جادة الاعتدال «ومثل هذه الملكية تعزز الشخصية وتؤمن الفرد وتبعد عنه ذل الحاجة أو السؤال وتنفذه من كثير من المتاعب والمشكلات وحرمان النظم الاشتراكية الأفراد من ذلك يربطهم بالدولة ويخضعهم في أمس أمورهم بها.

ولكن هذه الملكية عندما تأخذ الطابع الصناعي أو التجاري أو تستهدف الربح فإنها تخرج من دائرة الحق لتدخل في إطار الوظيفة المخملية تحكمها التوجيهات والقواعد الإسلامية.

انه انتقال من الخاص إلى العام من الاستعمال إلى الاستثمار»<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر كتابنا «بيان رمضان»، ص ٩٠.



وقد أوضح القرآن أن الملكية بصفة عامة هي ملكية استخلاف وليست ملكية استخفاف. فقد خلق الله تعالى الأرض والشمس والقمر وأنزل المطر وحركة الرياح.. وسخر كل هذا للإنسان الذي استخلفه والمال أيضاً مال الله إتاحة الله للإنسان وحدد له موارده ومصارفه.. وما ظل المالك أميناً على استخلافه فلا يجوز التعرض لها أو مضارته.. ولكنه ما أن يسيء التصرف حتى يجرد نفسه من حق الولاية على هذه الموارد.. وقد أبدع الإسلام نظرية «إساءة استخدام الحق» وجعل الحق مرده إلى الله وليس إلى الإنسان بحيث لا يمكن التعلل «بالحقوق الطبيعية للإنسان» أو حقه المطلق في التصرف في ملكه..

وكما ذكرنا أكثر من مرة، فإن وظيفة الاقتصاد الإسلامي لم تكن لتنتج لولا المقومات الخاصة للاقتصاد الإسلامي التي تكفل له النجاح. وشرنا إليها في الفقرة السابقة. وقد فشلت كل المحاولات التي نادى بها كتاب ومفكرون لجعل الاقتصاد وظيفياً في المجتمع الرأسمالي وذهبت إدرج الرياح، كما أن وظيفة الاقتصاد في الشيوعية أصبحت وسيلة من وسائل هيمنة الدولة على الناس وتحكمها فيهم ولكن الاقتصاد الإسلامي الذي يقوم على إيمان ديني وتحكمه ضوابط محددة تجمع ما بين الحرية والوظيفية.. يمكن أن ينجح فيما أخفقت فيه الرأسمالية والشيوعية. .

وبعض هذه الضوابط سلبية مثل تحريم الربا والاكنتاز والاستغلال والاحتكار والميسر والقمار وكافة الممارسات اللااخلاقية أو التي تتضمن عنصراً من عناصر الغرر أو الغبن أو الغش أو الخداع.. وبعضها الآخر إيجابية مثل فرض الزكاة والصدقات، بينما يهدف البعض الآخر لأن يتخلق الاقتصاد بأخلاق الإسلام فيبعد عن السفه والتبذير ويتم بالصدق والاعتدال، ويلحظ الاتفاق مع مقتضيات الآداب والمعنويات.

ولكن أهم من هذه الضوابط كلها وجود الروح الإسلامية والإيمان بالنظام الإسلامي من الفرد.. والحكومة.. لأن هذه الضوابط تستهدف الالتزام

بقيم ومثل معينة والنزول عليها، فإذا لم يكن هناك إيمان بها.. فإن هذه الضوابط تقع في الحلقة المفرغة للضوابط دون إيمان.. بمعنى أن هذه الضوابط ستطلب ضوابط للتأكد من قيامها. وضوابط الضوابط ستحتاج إلى ضوابط وهلم جرا، وهي مأساة الضوابط في المجتمع الرأسمالي.

### التكافل الاقتصادي :

التكافل الاقتصادي أصل عظيم من أصول الاقتصاد الإسلامي. فالمجتمع الإسلامي - كما صوره الرسول العظيم - جسد واحد.. إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.. وفي مثل هذا المجتمع يكون على الاقتصاد أن يحقق التكافل الاجتماعي لأفراده.

وقد أشرنا في أكثر من مناسبة إلى تلك الوثيقة التي أطلق عليها كتاب المودعة كتبها النبي ﷺ غداة وصوله المدينة.. وقد أطلقوا عليها هذا الاسم لأنها تضمنت - فيما تضمنته - مودعة اليهود. على أن مودعة اليهود أقل شأنًا مما تضمنته هذه الوثيقة الاجتماعية - الاقتصادية العامة، لأنها تحدثت عن المسلمين باعتبارهم «أمة واحدة دون الناس يتعاملون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف وان ذمة الله واحدة وان المؤمنين بعضهم موالى بعض يجير عليهم أدناهم وان المؤمنين لا يتركون مفرحاً (أي فقيراً) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل»، فهذا النص يوجب إيجاباً التكافل الاجتماعي والاقتصادي وقد وصل من قوة وعمق هذا المعنى أن كان الأنصاري يعرض على المهاجر ليس فحسب ماله.. بل وإحدى زوجاته إذا كان متزوجاً ليتزوجها المهاجر بعد أن يطلقها الأنصاري وتنتهي مدة عدتها. . ليس هناك ما هو أكثر دلالة من هذا على عمق وتغلغل التكافل اجتماعياً واقتصادياً.

وما أكثر الأحاديث النبوية التي توجب هذا التكافل «وقد تبرأ النبي ﷺ ممن يبيت شعباناً وجاره جائع، ومن أغنياء يموت بينهم رجل ضياعاً، وأمر

من كان عنده فضل ظهر أن يركب أخاه ومن كان عنده طعام اثنين أن يذهب بثالث»<sup>(١)</sup>، وأوصى بالجار حتى كاد المسلمون يظنون انه سيورثه.

ومع أن هذه التوجيهات يفترض أن تترجم إلى سياسات ونظم.. فإن الإسلام لم يقتصر عليها، ووضع الأداة التي يمكن أن تحقق عملياً هذا التكافل وهي الزكاة.

وتوضح أفضلية الزكاة ومدى فعاليتها عندما نضع في اعتبارنا أنها تحسب على رأس المال حيث يوجد رأس مال.. وعلى الدخل حيث يوجد الدخل.. وعلى الركاز (المعادن داخل الأرض) ومعنى هذا أن تؤخذ على رؤوس أموال كل الشركات والمؤسسات والتجار كما تؤخذ من الأفراد.. كما يفترض أن تؤخذ أيضاً من عوائد البترول باعتباره داخلاً في الركاز.. وإذا كان بنك فيصل الإسلامي في القاهرة - وهو المؤسسة الاقتصادية الوحيد تقريباً التي تخرج زكاة - تخرج ما يقرب من نصف مليون دولار سنوياً.. فكم تبلغ حصيلة الزكاة من جميع الشركات والمؤسسات الاقتصادية أو صناعية أو تجارية.. إلخ.. ونعتقد أن من أسوء صور الغفلة والإهمال تراخي المفكرين المسلمين عن إبراز هذا الجانب من جوانب الزكاة، والاقتصاد على إبراز جبايتها من الأفراد.. وعلى أساس الدخل.

وقد كان من مطلب حزب العمال البريطاني في العشرينيات فرض «ضريبة على رأس المال capital levg واعتبر ذلك مطلباً اشتراكياً عسيراً يصعب تحقيقه، ووضع الاقتصادي البريطاني المشهور «هيودالتون» الذي قدر له أن يكون فيما بعد وزيراً للمالية» رسالة موجزة عن هذا الموضوع».

---

(١) انظر كتابنا «بيان رمضان»، ص ٨٨.

وفي رسالتنا الموجزة «أخت الصلاة المهجورة» - عددنا عشرة مبررات تفضل بها الزكاة على نظام آخر للتأمين الاجتماعي.. وهذه المبررات هي:

١- أنها حق معلوم - وليست منةً أو إحساناً أو فضلاً على الأغنياء - أنها حق ثابت فرضه القرآن والسُّنة وأوجبت النظام الاقتصادي للإسلام على المسؤولين جبايتها أو الإشراف على توزيعها على مستحقيها ونص الشافعي على أن للفقير أحقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه وبين الفقير ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة إذا ظفر به وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه.

٢- على هذا الأصل ترتب أصل آخر هو أنه ليس على مستحقي الزكاة أن يدفعوا شيئاً لاستحقاقها أمام التأمينات والمعاش تشتت أن يدفع المستحق قسطاً أو يخصم من مرتبه حتى يستحق التأمين، والنظم التي يعفى فيها المستحقين من دفع أقساط يكون التأمين فيها من الهزال بحيث تستكمل عادة بتأمين إضافي يسهم العامل فيه بدفع أقساط متفاوتة.

٣- لما كان مبرر الأحقية في الزكاة هو الاحتياج فإن الزكاة تكون حقا للمحتاجين جميعاً دون أن تكون مقصورة على فئات دون فئات وفي معظم الدول تكون التأمينات الاجتماعية للعاملين بأجر دون الحرفيين أو المهنيين أو صغار التجار وقد شملت استحقاق الزكاة المحتاجين حتى من غير المسلمين في بعض المذاهب.

٤- ينبني على هذا الأصل أن تكون الزكاة على قدر الحاجة على حين أن التأمينات الاجتماعية في العالم بأسره تقدر بمعايير أخرى خلاف قدر الاحتياج مثل مدة الخدمة وقيمة المرتبطة وقيمة القسط المدفوع.. الخ.. وهذه كلها لا علاقة لها بحجم الحاجة وهي بصفة عامة تقلل من قيمة التأمين لأشد الفئات احتياجاً.

٥- أن الزكاة تجرى على رأس المال أونة وعلى الدخل أونة أخرى (لمن ليس لديه رأسمال) وهي بهذا تختلف عن معظم الضرائب التي قلما تمس رأس المال وتقتصر على الدخل أو الربح. وتفاوت نسبة الزكاة تبعًا لما إذا كانت تجرى من رأس المال كالماشية وعروض التجارة وهي اثنين ونصف في المائة أو على الدخل وإذا كان الدخل نتيجة زراعة أرض تروى بالإمطار دون مشقة فهي ١٠% وإذا كانت تروى بآلة ونحوها فهي ٥%.

٦- أن الزكاة تضع حدا معقولا للإعفاء فلا يدخل في نصاب الزكاة دار السكن والثياب الخاصة والقوت المدخر لطعام العامل وآلة العمل التي يحتاجها المكتسب بيده ودابة الركوب وان يتوفر بعد هذا كله فائض يبلغ ٢٠ متقالا من الذهب أو ٢٠٠ درهم من الفضة.

٧- أن دائرة المستحقين التي وضعتها الآية «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ»، يمكن أن تشمل كل صور الاحتياج من مرض أو بطالة أو عوز أو عجز أو شيخوخة أو كوارث التي تغطيها نظم التأمينات الحديثة ويضاف إليها أبواب لم تعرفها مثل الغارمين وفي الرقاب وابن السبيل.. إلخ..

ومن المهم الإشارة إلى أن المفهوم الإسلامي لكلمة سائل بعيد كل البعد عن التصور الشائع في هذا العصر فليس هو الشحاذ المعلم لكنه أي محتاج وقد يأتي هذا السائل على فرس ليأخذ ما يسد حاجته وقد أكد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز أحقية السائل الذي يأتي على فرس.

وللفقهاء أحاديث عديدة حول المصارف الثمانية وكلامهم بالطبع ينطبق على تصورهم للاحتياجات وما مادامت تفرضه الأوضاع وقتئذ ولم يترجم الكتاب المعاصرون هذه الاحتياجات إلى لغة العصر وهو نقص يأمل الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل أن يستدركه ويكفي في هذه العجالة ما أشرنا إليه

أنفاً من أن نص الآية لا يضيق أبداً بأي صورة من صور الاحتياج في العصر الحديث من بطالة أو عجز أو شيخوخة أو كوارث فضلاً عن الصور التي استتبطها الفقهاء وتعد جديدة مثل طالب العلم وطالب الزواج ومن تحمل حمالة أو ركبة دين أو انقطع به السبيل..إلخ.

٨- أن زكاة كل بلد توزع فيه نفسه وهذه الصورة المبكرة من صور الحكم المحلي تحول دون أن تدخل الزكاة في الميزانية العامة التي لا يعلم عنها شيء أو تبتلعها بنود هذه الميزانية، وهذا لا يمنع من أن الزكاة إذا فاضت عن حاجة منطقتها أرسل الفائض إلى بيت المال المركزي لينفق منه لدي المستحقين في مناطق أخرى على أن يكون للزكاة ميزانية خاصة في بيت المال حتى لا تلتهمها البنود الأخرى.

ويلاحظ هنا أن من مصارف الزكاة «العاملين عليها» وهذا ما يعزز من استقلالية الزكاة؛ لأن الذين يتولون جبايتها يأخذون مرتباتهم من الزكاة نفسها بحيث تتضاءل احتمالات تأثير الحكومة على هؤلاء العاملين في قيامهم بمهمتهم.

٩- أن الزكاة لا تأخذ بالنظام التصاعدي لأنها لا تستهدف التقريب بين الدخل وإنما كفاية التأمينات وهذا ما تكفيه النسبة المقررة للزكاة كما أن الإسلام لا يريد للذين تؤخذ منهم الزكاة أن يستشعروا نحوها الكراهية والمقاومة لأن هذا يكون على حساب المقوم التالي للزكاة.

١٠- أن الزكاة وإن كانت من ناحية ما ضريبة يجب وجوباً على من يتوفر له النصاب دفعها، فإذا لم يدفع أجبر على ذلك إلا أنها من ناحية أخرى فرض ديني وركن من أركان الإسلام فلا يكمل إسلام المسلم إلا بدفعها وهي من هذه الناحية تختلف اختلافاً جذرياً عن أي ضريبة أخرى تفرضها الدولة بحيث يكون جابى الزكاة هو نفسه من تؤخذ منه فكل من تجب عليه يقدمها من تلقاء نفسه بل يختار لها أفضل ماله حذراً من أن ينطبق عليه قول الله تعالى «وَيَجْعَلُونَ لِّهِ مَا يُكْرَهُونَ»، وفي

الوقت نفسه فإن جابي الضريبة يرد هذا الأفضل ويبقيه لصاحبه لأن النبي ﷺ حذر معاذًا «وياك وكرائم أموالهم» وهذا التجاوب ما بين من يعطي ومن يأخذ لا يوجد إلا في الزكاة دون غيرها من الضرائب.

من هذه المقومات العشر يتضح أن الزكاة تقدم لنا نمطًا فريدًا من التأمينات الاجتماعية يفضل أي نظام آخر وأنها لو طبقت لكانت المدخل للقضاء على كافة صور الحاجة والعوز والاضطراب وما تثيره هذه النفوس من مهانة من ناحية وثورة من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا كله فإن الزكاة ليست هي كل شيء فقد حث الإسلام على الصدقات غير الزكاة.. وجعلها من المكفرات عن الذنوب. فكأن هناك زكاة عمد توفر نصاب مالي.. وزكاة عند ارتكاب ذنوب.. وما أكثر ما يرتكب كل واحد من ذنوب أن هذا المورد الثاني.. لا يقل عن المورد الأول.

### وجوه الانتلاف والاختلاف ما بين الرأسمالية والإسلام :

من العرض السابق لخصائص ومميزات الاقتصاد الإسلامي، يتضح لنا أن الرأسمالية تتفق معه في الوجوه الآتية:

(أ) أن قيام الأفراد - أو الشركات التي يكونها هؤلاء الأفراد - بممارسة النشاط الاقتصادي - وليس الدولة - هو الوضع الأصولي لهذا النوع من النشاط، لأن ذلك يكفل لهم مورد المعيشة والكيان الخاص ويستحثهم على العمل، كما يكفل في الوقت نفسه للمجتمع - الاستفادة من مباداتهم وأفكارهم ومواهبه.. هذه كلها مبادئ ومقررات سليمة ومطلوبة نظريًا وعمليًا.

(ب) أن وازع الربح من أقوى العوامل في نجاح أي عمل اقتصادي ومن الخير الاعتراف به لأن أي بديل لا يمكن أن يغني غناه

---

(١) أخت الصلاة المهجورة ص ٢٦-٢٨.

أو يسد مسده أو يتسم بالتلقائية والمرونة والاستمرارية التي يعمل بها وازع للربح.

(ج) أن حرية العمل.. وآليات السوق هي وسائل ومعايير لها أهميتها في دفع النشاط الاقتصادي وتصحيح أخطائه، والتعرف على حقيقة موقفه.. وعندما تعطل فقد يعسر التقييم الحقيقي لأي وضع مشروع اقتصادي، وقد تؤخذ عنه صورة غير حقيقية.

ويمكن القول أن الإسلام يقر هذه المبادئ، ويعترف بوجاهتها بصفة عامة.

ولكن الإسلام مع هذا يختلف عن الرأسمالية في انه لما كانت الرأسمالية كنا ذكرنا - مذهبا اقتصاديا فإنها جعلت الاقتصاد يهيمن على المجتمع - ويستأثر بالصدارة والأولوية ويصبح غاية في ذاته - ثم جاء النظام الإنتاجي الاقتصادي فأكد هذه الهيمنة الغائبة، وجعلها أمرا واقعا ومقررا. لأن الرأسمالية استطاعت بفضل مناخ الحرية، ودفع وازع الربح، وما توصل إليه العالم من تقدم أن تغرق إنسان العصر الحديث بملايين السلع البراقة واللامعة التي احتلت كل ركن في بيته- ثم في شخصه- ثم في حياته اليومية ونشاطه العلمي وأنهت عهد الكدح العضلي وقضت على الفقر باعتباره عوزا أو جوعا، أصبح الفقير - في بعض الدول- هو من يتقاضى ألف جنية في الشهر!!

وبقدر ما استمتع الإنسان بهذه الحياة بقدر ما أصبح أسيرا لها. وبعد بهرة اللقاء الأول أخذ يحس بالملل والقلق والخواء.

ومع أن الفنون والآداب عريقة في المجتمع الأوربي وتعد معلما مميذا لها من الحضارة اليونانية حتى الآن.. وكانت تقوم - إلى حد ما - بالدور الذي تقوم به الأديان في الشرق - إلا أن الرأسمالية أفسدت الفنون وجعلتها صناعة كما هو واضح ليس فحسب في السينما والصحافة، ولكن في الأجهزة



الموسيقية نفسها - كما هبطت الروح التجارية المتأصلة في الرأسمالية بمستوى هذه الفنون إلى الدرك الأسفل. بحيث أصبحت أداة لإفساد الذوق وإشاعة الابتذال والانحطاط والاصفاف بين الناس.

وبالإضافة إلى هذا فإن أسلوب الرأسمالية في الإنتاج والعلاقات الصناعية قطب المجتمع ما بين عمال.. من ناحية وأصحاب أعمال من ناحية- كما سمح بوجود كل صور التكتلات التي تعمل لمصلحتها الخاصة دون نظر إلى أي عامل آخر، وأودي ذلك بالسلم الاجتماعي وأشاع الفرقة والمنازعات في الداخل، وهذا بدوره انتقل إلى المنازعات ما بين الدول بعضها بعضا بحيث أصبحت الحروب من أبرز سمات العصر الحديث، ومن أسوأها أيضاً لأن الحروب الحديثة مدمرة ووحشية بصورة لم تعهد.

ولما كان طالب المال منهوم لا يشبع، فإن ما توصل إليه الإنتاج الرأسمالي من ثراء لم يحقق ما كان كفيلاً بأن يحققه من رضا وسعادة، على النقيض، أنه بقدر ما يزيد.. بقدر ما كان يرهف حواس الفرد للمزيد من الاستحواذ والاستحصال، الأمر الذي كانت الصنعة تحققه ليجد الفرد نفسه أمام تطلع جديد.. وهلم جرا.

ومن الواضح أن هذا الأسلوب كله يتناقض مع الإسلام فالإقتصاد في الإسلام وسيلة لغاية.. وليس هو غاية في حد ذاته. والإنتاج إنما يراد به إشباع الحاجات الطبيعية وتمكين الإنسان من الاستمتاع بمستوى معقول من الحياة ولكن هذا الاسرف والسفه والتبذير والتهالك على اللذات والاستخدام أمام الشهوات هو مما لا يقره الإسلام، عقيدة أو شريعة. فالعقيدة تكبح في نفس الفرد هذا الجموح والتهالك وتضع حدودا للاستمتاع والتكاثر وتأثيماً لبعض صورته، كما تحول دون أن يصل الثراء بصاحبه إلي درجة البطر والاستعلاء.. والشريعة تضع الضوابط التي تحول دون أن تتطور الأمور إلى هذه الدرجة، سواء كانت هذه الضوابط على حرية العمل والممارسة أو كانت على الثروات بما يوجب التكافل الاجتماعي.. والحق أن من العسير أن

نتصور أن مجتمعًا مسلمًا حقًا يمكن أن ينحدر إلى ما ينحدر إليه المجتمع الرأسمالي من انحطاط.. وكيف يتصور هذا والإيمان بالله عز وجل يتغلغل في أعماقه.. وتوجيهات محمد وخلفائه تضع الخطوط العريضة لكافة جوانب المجتمع.

وفي الوقت نفسه فإن التوجيه الذي تمارسه الدولة الإسلامية لوضع الاقتصاد داخل الخطوط العريضة للإسلام سيوجد تغييرًا - حتى في النقطة التي يتلاقى فيها الإسلام مع الرأسمالية - أي حرية العمل.. لأن من حماقة التي لا يحتملها الاقتصاد الإسلامي أن يكون قصارى علاج البطالة أن يمنح المتعطل إعانة بطالة تقارب مرتبه فإذا كانت البطالة ضريبة لا بد من دفعها في النظام، فإن إعادة تدريب هؤلاء العمال العاطلين وإبطال أعمال أخرى لهم ليس أمرا معجزا بل هو الأفضل للعمال. وللمجتمع، ولكن في المجتمع الرأسمالي كل واحد يعكف على عمله الخاص، ولكنه يهز كتفيه للآخرين! وليس هناك الالتزام بالترابط إزاء حل المشكلات.. وإذا فليحلها كل واحد بطريقته الخاصة.

إن سياسة عدم الاكتراث وإلقاء الحبل على الغارب. وهز الأكتاف بالنسبة لمشاكل الآخرين التي تنتشبت بها الرأسمالية هي سياسة تناقض تمامًا الأصول الإسلامية. وحرية العمل لا تعني أبدًا عدم الاكتراث بمصالح الآخرين، فضلاً عن الإضرار بهم. لأن الفكرة في الحرية هي كف أذى الآخرين، ولا يمكن كف أذى الآخرين.. بإيقاع الأذى بهم. وعندما تؤدي حرية العمل إلى المساس بحرية الآخرين أو مصالحهم الحيوية فإن الحرية عندئذ تتجاوز حدودها وتخضع لطائلة قانون حماية الآخرين.

### **وجود الائتلاف والاختلاف ما بين الشيوعية والإسلام:**

يقوم الاقتصاد الشيوعي على التخطيط المركزي.. فالملكية الفردية محرمة.. والمنشآت مدولة - أي في يد الدولة - (وهي الواقعة التي يعبر

عنها من قبيل الإبهام بالتأميم) والدولة تعطي الناس «بالقطارة» وهي لا تستهدف رغبات الناس، أو حتى احتياجاتهم قدر ما تستهدف تحقيق الخطة.

وتطعيم الاقتصاد بعنصر التخطيط أمر حسن. وهو يقترّب من سياسة الاقتصاد الإسلامي. ولكن الاقتصاد الإسلامي يختلف عن الاقتصاد الشيوعي في نقطة هامة جداً وحيوية تلك هي تدويل المنشآت وإدارتها بمعرفة الحكومة خاصة عندما يسبق هذا اغتصابها من أصحابها بحجة «اغتصاب المغتصبين»، لأن الإسلام يرى أن ذلك يفسد الحكومة ويفسد الشعب.. ويفسد الإنتاج أيضاً.

يفسد الحكومة لأنه يعطيها سلطات مطلقة وقوة طاغية على الشعب. ولا بد أن تفسدها هذه السلطة وتطبيها بالدكتاتورية والظلم والتحكم.. وما إلى هذا كله.

ويفسد الشعب لأنه يجعله عالة على الحكومة في رزقه ومأكله ومشربه ومسكنه. ويجرده من الكيان الخاص والاستقلال الذاتي وأي حرية للعمل.. ويصبح عملياً «عبداً للحكومة».

ويفسد الإنتاج،، لأن الإدارة الحكومة التي تقوم على تخطيط مركزي قد تكون أسوأ الإدارات فالتخطيط المركزي يؤدي بآليات السوق.. وبالتالي لا يكون هناك المؤشر الموضوعي لحالة المؤسسات والمنشآت ويغلب أن تأخذ الحكومة صورة غير حقيقية قائمة على تقارير وأوراق وليست على الوضع الواقعي. ولأن الإدارة الحكومية ترتبط ارتباطاً لا انفصام له بالبيروقراطية التي تذهب الفرص وتضيع الوقت وتحول دون المضي المرن السريع للعلم.. وأخيراً فإنها تفقد العاملين محفزات المبادأة والنشاط والإضافة الخاصة وتؤدي إلى الأداء الرسمي العقيم وقد تفسح المجال لصور أخرى من التسبب.. وهذه النقائص في مجموعها لا تقل عن نقائص الإدارة الرأسمالية.

والسياسية التي يتبعها الإسلام هي «التوجيه» ووضع الخطوط العريضة والضوابط الضرورية للممارسات الحرة، فالإسلام لا يسلم الاقتصاد للرأسماليين يفعلون به ما يشاءون بحجة الحرية أو ما إلى ذلك من دعاوى وهو كذلك لا يسمح للحكومة بالاستئثار به والتحكم في الناس عن طريقه.. ولكنه يسلم بالمبدأ العام- مبدأ الحرية- ويضع من الضوابط ما يحول دون الشطط - ومن التوجيهات ما يضمن تحقيق الاحتياجات السليمة والمطلوبة للمجتمع.

قد يقال أن هذه السياسة ليست إلا سياسة «مصالحة» أو تسوية.. وأنها في الوقت الذي تميع كل طابع من طابعي الاقتصاد (الرأسمالي والشيوعي) فإنها لا تحقق طائلاً، لأن التدخل في الحرية يفسدها والحرية في التخطيط تفسده.. ومثل هذه الافتراضات لا تصدر إلا عن الذين تملك التعصب للرأسمالية أو الشيوعية أذهانهم فلم يعودوا يتصوروا شيئاً آخر.. أو أنصار الحلول القاطعة الذين يتصورون المجتمع جسماً بسيطاً يمكن للإجراءات أن تسير فيه كما تسير السكين في قالب الزبد، أو هو ظن الذي يساوون بين الإسلام والرأسمالية والشيوعية، ويفوتهم أن الإسلام دين أولاً، قبل أن يكون نظاماً اقتصادياً.. وأن له من «الإيمان» مصدرًا للقوة والفعالية والتأثير لا يتأتى للرأسمالية والشيوعية وبالتالي لا تكون لكل هذه التصورات ولا يكون لما تنيره من ادعاءات ما قد يبدو من سلامة للوهلة الأولى.

## [٤]

### النظام السياسي

العلاقة ما بين الاقتصاد والسياسة من ناحية، وما بين هذين والدين علاقة قديمة.. فقبلاً كانت السياسة والاقتصاد يرتبطان بالدين ثم استقلت السياسة عن الدين ثم استقل الاقتصاد عن السياسة ثم عادت العلاقة مرة أخرى في صورة تأثير الاقتصاد على السياسة فالرأسمالية هي أم الديمقراطية البرلمانية الكلاسيكية، كما أن الشيوعية - التي هي أصلاً مذهب اقتصادي ما كان يمكن أن تحقق لو لم تبدع نظاماً سياسياً ينقلها من عالم الفكر والاقتصاد في الغرب قد نفضنا اليدين من الدين، وقبلت المسيحية ذلك، فإن الإسلام لا يقبل هذان لأن الجوانب الاقتصادية والسياسة فيه جزء من التوجيهات المنصوص عليها في القرآن، والتي تعد أداة لإقامة مجتمع إسلامي، ومن هنا فإن وجوه الائتلاف والاختلاف في الجانب السياسي ما بين الرأسمالية والشيوعية من ناحية، والإسلام من ناحية أخرى قائمة، وعلى أعظم جانب من الأهمية والخطورة.

### أصول الحكم في الإسلام:

من أهم الأشياء لفت للانتباه أن القرآن الكريم لا يستخدم كلمة الحكم إلا ويرادفها بكلمة «بين» فالنبي لا يحكم الناس.. ولكنه يحكم بين الناس.. وعندما لا يستخدم القرآن كلمة «بين» فعندئذ يكون الحكم لله<sup>(١)</sup>.

وهذه التفرقة هامة.. لأنها تبرز الطابع القضائي للحكم الإسلامي.. ولما كان الحكم بين الناس يقتضي بداهة معياراً ينبني الحكم عليه فإن القرآن

---

(١) سنجلي بعض ما يترتب على ذلك، ودلالته في رسالة «سيادة القانون.. رؤية جديدة لمضمون الحكم بالقرآن» التي ستصدر قريباً إن شاء الله.

ينص على أن الحكم بين الناس يكون «بما أنزل الله» أو «بالعدل» وترادف هذين يقتضي أن يكون ما أنزل الله تعبيراً آخر عن العدل - أو القسط. الأمر الذي يبعد تماماً الإرادة الفردية أو مشيئة الحكم أو غير ذلك.. حتى لو كان إرادة الأغلبية..

وبالنسبة لأسلوب ممارسة الحكم فقد نص القرآن على «الشورى»، وأكدت ممارسات الرسول ذلك، وبهذا وضع الإسلام قيماً أخرى على إرادة الحاكم أو مشيئته، فأصبح الحاكم مفيداً في التشريع بما أنزل الله.. وفي الممارسة بأسلوب الشورى.

ونصت الأحاديث النبوية، كما طبقت الممارسة التي يعتد بها. وهي ممارسة الخلفاء الراشدين مبدأ آخر هو «مبايعة» الإمام أو الخليفة.. والمبايعة هي التعبير الإسلامي لما يطلق عليه الانتخاب.

### وعلى هذا تكون أصول الحكم الإسلامي:

(أ) هدف الحكم إقامة العدل طبقاً لما أنزل الله (حيث أن العدل أو القسط.. جاء مرادفاً لما أنزل الله).

(ب) مبايعة الأمة - أو ممثليها - حاكماً أو إماماً للقيام بهذه المهمة.

(ج) أن يتبع هذا الإمام أسلوب الشورى.

وما ظل الحاكم أميناً على هذه الأصول.. أي أنه يقيم العدل الذي أنزله الله، ويتبع أسلوب الشورى - ويكو قبل هذا كله منتخباً عن رضى وطواعية من الأمة فإنه يكون مستحقاً للطاعة والمساندة.. وإذا خالف ذلك فقد مبرر الاستحقاق ويكون الموقف تبعاً لمدى خروجه ومخالفته.

### وجوه الائتلاف والاختلاف ما بين الرأسمالية والإسلام:

لمدة خمسة قرون منذ أن هرب الحرفي الصغير المستقل إلى «البورو» ليوجد البيئة البرجوازية، ثم ظهر التاجر وحطم الحواجز بين المدن

لتنشأ الدولة القومية، ثم ظهرت أخيراً الثورة الصناعية والرأسمالية، وقد كان الجو يتهيأ لظهور الديمقراطية كواجهة سياسية للرأسمالية.. وكما أوضحنا فإن الأصول السياسية للديمقراطية هي نفسها الأصول الاقتصادية للرأسمالية. فالفرد هو دعامة المجتمع. والحرية هي أسلوب العلم، والسلطة (أو الربح) هي الهدف، ونتيجة ذلك ظهرت المبادئ والممارسات الديمقراطية من حرية أو انتخاب أو أحزاب أو معارضة.. إلخ..

وكانت الديمقراطية في المجال السياسي فتحاً، كما كانت الرأسمالية في المجال الاقتصادي، ودفعت العالم دفعة كبرى إلى الأمام.. ومن العبث نكران ذلك.. أن ظهور شخصية الفرد والتوصل إلى حرية الفكر وانتشار الصحف ووسائل الإعلام وتكوين الأحزاب والهيئات على اختلافها وازدهار الدعوات الشعبية والحركة النقابية والاشتراكية نفسها. والفنون والآداب ووسائل الاستمتاع بوقت الفراغ.. كلها ما كانت لتظهر لولا مناخ الديمقراطية.. وما كان ماركس يجد مكاناً آمناً يشذ فيه الأسلحة التي سيوجهها ضد هذا المناخ، مثل لندن - قلعة الرأسمالية وحصن الحرية في الوقت نفسه.. وما كان يمكن للمرأة والعامل والطفل والمريض والسجين وبقية المظلومين والمنبوذين أن ينالوا حقوقهم في غير هذا المناخ الحر الإنساني.

ومع هذا كله.. فقد كان للنظام أخطاؤه القاتلة، وامتزجت أنبل الدعوات بأسوأ صور العهر والزيف فالانتخابات أصبحت صناعة يفوز فيها الأكثر مالاً ومهارة.. والصحافة خضعت للإعلان والفنون انحطت إلى مستوى الغرائز والأحزاب أصبحت مرآة تعكس المصالح المكتسبة، وأصبح بعضها أدالة للعمالة، وهذه هي الضريبة التي فرضتها الرأسمالية على الديمقراطية، وكان لا بد أن تدعن الديمقراطية حتى تسمح لها الرأسمالية بالوجود.

وقد كانت - وما تزال - الحرية هي الهدية العظمى والمأثرة الكبرى للديمقراطية.. ورغم كل ما يقال عنها، فلا بد أن نعترف لها ونشكرها عليها ونحافظ عليها باعتبارها خطوة حاسمة للبشرية على طريق التقدم.

ولما كان النظام الديمقراطي يقوم أساساً على الفرد، ويحمل في جوهره ومظهره سمات وعناصر ورثها عن الرأسمالية فقد أوجد مجموعة من نظم الحكم تتفق مع الوضع الرأسمالي وتتجاوب معه ويمكن أن تكون واجهة أمينة له مثل نصاباً معيناً ثم أبيع للجميع.. ومثل الأحزاب أو الشركات السياسية التي تقوم في المجال السياسي بالدور الذي تقوم به الشركات في المجال الاقتصادي والرأسمالي، ثم السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية. وكان لابد أن تأخذ بمبدأ الفصل بين السلطات حتى يبقى على مناخ الحرية وتبعد احتمالات الاستئثار أو الحكم الديكتاتوري.

وعند مقارنة أصول الحكم في الرأسمالية - الديمقراطي بأصوله في الإسلام نجد أن الإسلام كما أشرنا له مدخله الخاص لمعالجة الحرية الذي يختلف عن مدخل الرأسمالية.. فهو لا يذكرها بالاسم، ولكنه يقضي على كافة صور النظام ثم يجعل العدل معياراً وفيصلاً في العلاقات وبذلك يتحقق سلباً وإيجاباً المضمون الحقيقي للحرية. وهي في هذا أكثر تحقيقاً للحرية من الرأسمالية. لأنه ليس المهم الدعوة إلى الحرية قدر ما يكون وضع النظم - سواء كانت منافذ أو ضوابط - التي تحقق الحرية.. وهذا ما فعله الإسلام. أما في حرية الفكر، فإن الإسلام - على نقيض ما يتصور البعض - يؤمن بحرية الفكر إلى النهاية.. وقد شرحنا هذه الحقيقة في كتابنا «حرية الاعتقاد في الإسلام» والفكرة الجوهرية هي أن الإيمان النفسي - وهو الإيمان الحقيقي لا يوجد إلا بالافتتاح والافتتاح لا يوجد إلا بعد التفكير.. فإذا سدت منافذ التفكير استحال الإيمان عقلاً وقلباً.. وقد أشار القرآن الكريم إلى أن إيمان أبي الأنبياء إبراهيم.. وإيمان موسى.. قام على الافتتاح بعد مساورة الشكوك.. وبعد البحث عن البدائل أو المطالبة بدليل مادي «ليطمئن قلبي» كما ذكر القرآن مراراً وتكراراً أن الله وحده يهدي من يشاء.. وأن الأنبياء أنفسهم لا يستطيعون هداية من يحبون.. وأن الله لو شاء لهدى الناس أجمعين، وأنه وحده هو الذي يفصل «فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» يوم القيامة.. وليس ذنب الإسلام أن لم يفهم البعض هذه الحقيقة، وقد تعذر الفقهاء القدامى



لأن المناخ لم يكن يسمح بتفهم عنصر الحرية تمامًا.. ولكن الذين لا يكون لهم عذر هم الفقهاء المعاصرون.. الذين يحملون الإسلام بأوزار قصر نظرهم وسطحية تفكيرهم.

ويتفق الإسلام مع الرأسمالية في أنه يجعل للسلطة القضائية حصانة تعصمها من يد الحاكم.. بل أن الإسلام يفوق الرأسمالية في هذا لأن حكم القاضي لا يستمد من رئيس الدولة، ولأن رئيس الدولة لا تكون له حصانات تعصمه من ولاية التأثير القاضي ولأن المناخ الإسلامي لا يسمح بوجود قوى التأثير والضغط التي يسمح المناخ الرأسمالي بوجودها.

وتختلف طبيعة السلطة التشريعية في الإسلام عنها في الرأسمالية لأن الإسلام وضع بالفعل الخطوط العريضة للتشريع وما دامت مثبتة جلية في القرآن والصحيح الثابت من السُّنَّة، فلا تملك السلطة التشريعية مخالفتها أو تعطيلها، ولكن هذا لا ينفي وجوده عدد كبير، مئات أو ألوف من القوانين والتشريعات التي يكون على السلطة التشريعية النظر فيها وسنها، مع ملاحظة أن لا تختلف مع أساسيات الشريعة الإسلامية.

ويعوض هذا أن السلطة التشريعية لها دور أكبر في متابعة الحاكم ومراقبته بحيث تفوق سلطتها في المتابعة سلطتها في التشريع.

كما أن الإسلام بحكم أنه نظام عملي إلى حد كبير لا يشجع تلك الصور من تمييع السلطة التنفيذية التي نجدها في الديمقراطية نتيجة أنها تسمح لكل أصحاب المصالح في الدفاع عن مصالحهم. كائنة ما كانت هذه المصالح وبأي صورة كان هذا الدفاع.

وفي أصل الاختلاف ما بين الرأسمالية والإسلام أن الديمقراطية الرأسمالية تدعي «سيادة الأمة» وبالتالي نخضع لمن يمثلون الأمة.. ولكن السيادة في الإسلام تكون لله. بمعنى أن يستهدف النظام السياسي تطبيق الخطوط التي أنزلها الله، والعدل هي أبرز هذه الخطوط . وقد أدى الاختلاف

في المنطلق إلى صور من المفارقات.. ففي النظام الذي يدعي «سيادة الأمة» يهيمن الرأسماليون وتظهر صور عديدة من التزييف والتأثير والضغط.. أما الإسلام فإن منطبق العدالة يرفض هذا الصور، كما يجعل المساواة أكثر تحققاً، لأن سيادة القانون أشمل في الحكم الإسلامي منها في المجتمع الرأسمالي الذي يسمح بوجود القوى الضاغطة والمؤثرة. في حين أن رئيس الدولة نفسه لا يكون له كما اشرنا أية امتيازات أو حصانات أمام القانون.

### وجوه الائتلاف والاختلاف ما بين الشيوعية والإسلام:

بقدر ما نجد في كتابات ماركس وانجلز من محاولات تأصيل الجدلية المادية، وجعلها نظرية كونية شاملة تفسر الوجود والمجتمع - بصرف النظر عن درجة توفيقهما في ذلك - بقدر ما لا نجد شيئاً يقارب ذلك عن التنظيم السياسي، ويبدو أن ماركس وانجلز لم يجدا أن مما يدخل في دور المنظر التنبؤ مما يكون عليه نظام شيوعي في المستقبل، ولم يتحدث كل منهما عن ذلك، باستثناء إشارات عارضة. فقد تحدث ماركس عن مرحلة من الديكتاتورية البلوريتاريا تعقب تدمير الرأسمالية وأعاد إلى الأذهان تجربة كوميون باريس، كما أشار أنجلز إلى ذبول أو ذواء الدولة في المرحلة الأخيرة عندما لا يعود هناك حاجة لاستخدام أدوات القمع. ووقعت مسألة وضع نظام الحكم عملياً ثم يبرره نظرياً على لينين ولينيني أولاً وقبل كل شيء رجل دولة وسلطة وثورة.. وقد عمل طول حياته لشيء واحد، هو تقلد زمام الحكم، بصرف النظر عن كافة الأساليب والوسائل والملابسات التي توصله إلى ذلك. وكانت ثقته التي لا حد لها في مقدراته من ناحية، وسلامة فكرة من ناحية أخرى يجعلانه يؤمن أنه ما أن يتقلد السلطة حتى يستطيع تغيير كل شيء. وتحقيق أهداف الثورة واستبعاد عشرات أو مئات الاعتراضات التي أثارها المنظرون الماركسيون من مختلف الدول وممن هم ارسخ قدما وأعرق صلة بالفكر الماركسي - فقد كان كاوتسكي وبرنشتين اعرق صلة بانجلز وبالفكر الماركسي من مصادره الألمانية الأصلية من

لينين وكانت روزا لوكسمبورج اقدر على التنظير الأمين، وكان بليخانوف هو الأستاذ الأول للينين في الاستيلاء على الحكم. ولكن شيئاً من هذه الاعترافات كلها لم يكن ليقف أمام لينين الذي أخذ يدم النظم القديمة ويضع النظم الحديثة، ويكتب داعياً ومنفذاً أو مطوعاً الفكر الماركسي.. ولكنه على عبقريته التي لا شك فيها لم يقدم تنظيراً، ولا تبريراً.. وأخذ يقذف عامداً متعمداً بالخيانة والعمالة باختصار فإنه فتح باب هذا التكنيك القذر والمقبت.. تكنيك لدد الخصومة وشنان العداوة للمخالفين وادعاء انحرافهم وقذفهم - دون أي دليل - بالعمالة والخيانة. وأصبح هذا تقليداً من تقاليد السياسة الشيوعية في العالم أجمع حتى الآن لا نجد من هم أكثر بذاءة أو صفاقة أو تزيفاً منهم! وكل من يخالفهم «لأبد» وأن يكون عميلاً وأجيراً للإمبريالية.. يعمل في خدمة مخابرات ما!!

وحقيقة الحال أننا لا نجد في كتب لينين وستالين وأباعهما إلا ما نجده في كتب الطغاة والديكتاتوريين من سقط المتاع.. والإسهام الحقيقي الذي جاء به هو «الحزب» الذي أشبه جيشاً مدنيّاً يخضع لمران وتدريب أكثر صرامة مما يتبع في الجيوش، ويؤمن إيماناً تاماً ويطيع طاعة عمياء، كان لينين نمطاً عصرياً من «شيخ الجيل» حسن الصباح وأوجد فرقة من «الحشاشين» الذين كيفت نفسيتهم بحكم التدريب والمران الذهني المركز. ولم يكن عبثاً أن يعجب لينين بالعالم الروسي بأفالوف الذي كان قد بدأ تجاربه على الكلاب لدراسة آثار الأفعال المنعكسة عليها.. وقد طبق لينين شيئاً يقرب من ذلك على الأدميين.

إن الجديد غي الديكتاتورية الشيوعية والذي جعلها صورة متميزة وبداية حقيقية للحكم الشمولي هو وجود نظرية من ناحية، وحزب يؤمن بهذه النظرية من ناحية أخرى ويقوم بتدعيم النظرية وحماتها في الداخل والنظرية الماركسية هي أساساً أداة لهدم النظام الرأسمالي، ولكنها ليست أداة لبناء نظام شيوعي.

وما قدمه لينين يصور قيام ثورة شيوعية في بلد متخلف، تقوم بصورة بعيدة عن الديمقراطية والإنسانية، قد مار هي قريبة من الديكتاتورية والوحشية.

وقد كان لينين أساساً رجلاً واقعياً، يتميز بكل ما يتميز به بناء الدول من حسم وعزم وقسوة وصرامة. وكان أكثر من بسمارك - رجل حديد ودم ولكنه - وهو ما يختلف فيه عن بسمارك - كان داعية ومؤمناً بنظرية وظل أربعة وعشرين عاماً من الثلاثين بين العواصم الأوروبية ومختلطاً بكل التيارات الفكرية.. ولهذا فإنه آمن - إلى درجة سطحية من العمق - بالمثل الأعلى للدولة الاشتراكية الذي كان الإرث الأعظم لكل الاشتراكيين وقتئذ.. وعندما كان على أبواب السلطة، فإنه رسم لنا في «الدولة والثورة» صورة دولة من نوع جديد يجاوز بمراحل الأنماط القائمة.. دولة متحررة من هيمنة الطبقات. لا يكون فيها ذلك الجيش والبوليس المحترف الذي يعمل كجهاز قمع لخدمة أسياده، ولا جهاز بيروقراطي وإداري وفئة «كبار الموظفين» دولة شعبها هو جيشها ويستطيع العامل أن يكون وزيراً والطباخة سياسية.. ولا تكون أعباؤها أكثر من أعباء مكتب بريدي!!

ولكنه ما أن تقلد السلطة حتى سيرته الضرورات، وباسم تحقيق المثل الأعلى: دولة بدون جيش أو بوليس يمثلان جهاز قمع أسوأ جهاز قمع «لقمع أعداء الثورة» وتحولت الثورية شيئاً فشيئاً إلى بيروقراطية لا تتميز عن البيروقراطية القيصريّة. وكتبنت بوحشية قومه بحارة كرونستاد وهم أول من ناصر الثورة والين ضربوا قصر الشتاء وكفلوا نجاح الثورة وحلت نقابة عمال السكك الحديدية. بينما أخضعت الحركة النقابية لجهاز الدولة.

في جحيم الضرورات هذه التي انغمس فيها لينين إلى الأذقان كان طيف المثل الأعلى القديم للدولة الاشتراكية ساروه في تلك اللحظات النادرة التي يفرغ فيها من مشاغله المتواصلة والثقيلة.. وكان وهو في هيلمان السلطة يبعده عن ذهنه أو يتغلغل بالمستقبل.. ولكنه عندما أقعده الشلل أدرك

فداحة الغلطة التي وقع فيها وشاهد ستالين وذردينسكي يستبدان بكل شيء في الحزب ويهدران حرية الشعب.. وتصل فجاجتهما إلى بيته وزوجته.. وفي المؤتمر الخير الذي شهده (أبريل ١٩٢٢م) قال إنه يشعر بما يشعر به السائق الذي يحس فجأة أن العربة تسير في غير الوجهة التي وجهها إليها.. واستطرد «أن قوى كثيرة تتحرف بدولة السوفيت عن الخط السليم» ولما لم يجد أثرا لهذا التنبيه - على خطورته - قرر على حد ما روى إسحق دوتشر -<sup>(١)</sup>. هو أحد الثقات في التاريخ الروسي.. ليس فحسب أن يدين ستالين وذردينسكي، بل أيضا أن يعترف بذنبه في هذا.. وفي ٣٠ ديسمبر ١٩٢٢م غافل أطباءه وممرضاته وأخذ يكتب رسالة إلى المؤتمر المقبل بدأها «يبدو أنني إلى حد كبير - مذنب في حق عمال روسيا» وأوضح ما تردت إليه السلطة من بيروقراطية وما ارتكبه ستالين من إهدار لحريات الشعوب الصغيرة.. إلخ.. وهو مذنب لأنه لم يوقف هذا بالحسم الواجب.

وقد كتم أمر هذه الرسالة لمدة ثلاثة وثلاثين عاما، ولم تعرف إلا بعد المؤتمر العشرين المشهور.

ولا ريب لدينا في صحة تصوير «إسحق دوتشر» ولكنه لا يصلح تكفيرا عما اقترفه لينين. أنه يشبه شيئا كبيرا ما يرويه المفسرون عن ندم فرعون وتوبته قبل أن تبتلعه الأمواج بل أن لينين يستحق مزيدا من اللوم لأن مجموعة مخلصه وصادقة من قيادة الحزب كشفت في المؤتمر العاشر (مارس ٢١) عما وصلت إليه الأوضاع من بيروقراطية وسيطرة وانعزال عن الشعب.. وتنبأت بكل ما يمكن أن يحدث لو سمح لهذا الانحراف بالاستمرار. ولكن لينين بدلا من أن يستمع إلى «المعارضة العمالية» التي رفعت لواءها مدام كولونتاى وشليابينكوف.. فإنه وصم ذلك الفوضوية والسينديكالية

---

(1) Ironies of history by Isaac deutscher the Moral dilemmas of Lenin  
PP. 167-173.

واستصدر الإجراءات التي شددت من قبضة ستالين على الحزب..، اغلب الظن أن موقفه هذا كان في أصل ندمه «وأزمته المعنوية» عندما بدأ يملي رسالته في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٢م.

على أن مأساة لينين تصغر أمام مأساة المفكرين الماركسيين المعاصرين الذين بعد أن شاهدوا كل استبداد وأخطاء ستالين، وبعد أن اعترف خروشوف بالديكتاتورية الرهيبة لستالين والقمع الوحشي لكل معارضة، تراهم يدافعون عن «ديكتاتورية البلوريتاريا» ولا يعرفون الخجل وهم يشيرون إلى ذبول الدولة! ويقلبون الحقائق.. وقد كتب أحدهم:

«.. ولهذا رأينا أن ديكتاتورية البلوريتاريا في الاتحاد السوفيتي تصبح ديكتاتورية لمجموع الشعب لعامل بعد ما حققت كثيراً من المنجزات وقضت على كثير من الأسس المادية للديكتاتورية الطبقية وانفتح السبيل لإلغاء السلطة السياسية المركزية ونقل مهام الدولة تدريجياً إلى مجموع السكان في شكل حكومات ذاتية تقوم بالمهام الإدارية للنظام الاجتماعي.

على أن هذه عملية ليست هينة، ولن تتحقق تماماً إلا بتوفر المساواة التامة بين جموع الشعب العامل.

والمساواة في الماركسية هي إحدى معاني الديمقراطية كذلك، وهي ليست مساواة بالمعني الدارج كتكافؤ الفرص!! والأجر المتساوي على العمل المتساوي!! إلى غير لك.

أن تكافؤ الفرص ليس أساساً للمساواة الحقيقية.. لأن البشر سيختلفون دائماً في قدراتهم واستعداداتهم على العمل، ولهذا فإن المساواة الحقيقية لن تحقق إلا في مجتمعه الوفرة حيث لا يأخذ الإنسان بحسب جهده، وإنما بحسب حاجته، هناك تتحقق المساواة الحقيقية وتتوفر الديمقراطية الحقيقية

التي هي إلغاء للديمقراطية!.. بمعناها السياسي كشكل من أشكال دولة القهر والإكراه الطبقي<sup>(١)</sup>.

ويكفي هذا لإيضاح إلى أي درك من الانحطاط والصفافة وقلب الحقائق والبهلوانية الفكرية يصل الأمر ببيغوات الشيوعية.

فإذا أردنا مقارنة النظام السياسي للشيوعية بالنظام السياسي الإسلامي لوجدنا أن الإسلام يرفض كل صور الديكتاتوريات وبالذات دكتاتورية البلوريتايا التي لم تبلي البلوريتاريا بما هو أسوأ أو أشنع منها!.. وهو يرى أن ما يوردونه من تأويلات ليست فحسب خاطئة وأنها مسرفة في الانحراف وهي مرفوضة تماماً. ومع أن في جعل الشيوعية للعمل أساساً للسلطة ما يتفق مع الإسلام باعتبار أنه يجعل العمل أبرز المؤهلات - وأنه يستبعد الوراثة والجاه والحسب والنسب إلا أن فكرة الديكتاتورية تقضي على هذا المعنى تماماً.

ولن يغتفر التاريخ أبداً للينين وستالين واتباعهما أنهم كانوا الذين انتهكوا عذرية الحرية وأسقطوها من عليائها وأهاضوا جناحها ولوثوا صفحاتها ووضعوا ادعاءات، مذهبية للقضاء عليها واستئصالها بصورة منهجية، وبصفاقة لا حد لها وعلى أسس مبدئية مزعومة، وأن الشيوعية كانت مدرسة الحكم الشمولي، وكل ما يتضمنه من إذلال واستبعاد وتسخير وتحكم كامل في الناس، ومنها نقل أو اقتبس كل طغاة العصر الحديث، وأنها كانت رائدة لتلك الممارسات السيكولوجية والبيولوجية التي عبثت بمكونات الشخصية الإنسانية وأفسدت طبيعتها.. وكما أن لعنة الاستغلال الذي مارسه الرأسماليون، الأول تلاحق الرأسمالية حتى الآن، فان لعنة الديكتاتورية ستطل تلاحق الشيوعية أينما كانت، وتسقطها من عيون المفكرين والكتاب الإنسانيين، وتكشف سواتها أمام الجماهير.

---

(١) معارك فكرية، محود أمين العالم، دار الهلال، ص ٢١٧.